فتحي فوزي عبد المعطي

نساء في حياة الأنبياء



إهـــــــداء ٢٠٠٨
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

نساء في حياة الأنبياء

تحدّث عنهنّ القُرآن الكَرِيم والكتاب المُقدّس

تأليف

فتحي فوزي عبد المعطي



اســم الكتــاب: نـســـاء في حــيــاة الأنــبــيــاء
تحدث عنهن القرآن الكريم والكتاب المقدس.
الـمـؤلــف: فـتـحـي فـوزي عـبـد المعـطـي.
إشــراف عــام: دالــيــا مــحــمــد إبــراهــيــم.
تاريــخ النشــر: الـطـبـعـة الأولـى ـ يـونـيـة 2008.
رقـــم الإيــداع: 2008 / 14161
الترقيم الـدولي: ISBN 977-14-4283-X

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي ـ المهندسين ـ الجيزة
ت: 33466434(02)-33472864(02) فاكس: 33462576(02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة ـ السادس من أكتوبر
ت: 38330287 (02) - 38330289 (02) ـ فــاكــس: 38330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطابع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقي ـ الفجالة ـ
القاهرة ـ ص. ب : 96 الفجالة ـ القاهرة.
ت: 25909827 (02) - 25908895 (02) ـ فــاكــس: 25903395 (02)

مركز خدمة العملاء: 25909827 (02)
البريد الإلكتروني لخدمة العملاء:
customerservice@nahdetmisr.com
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدي)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 13 شارع المستشفى الدولي التخصصي
ـ متفرع من شارع عبد السلام عارف ـ مدينة السلام
ت: 2221866 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله.. محمد ابن عبد الله.. الهادي إلى الحق والعدل وإعلاء البشرية، وخلاصها من أدران الشرك والضلال. وبعد..

فهذا الكتاب الذي أبسطه بين يدي القارئ العزيز، تضم الصفحات التي بين دفتيه أربع عشرة شخصية نسائية. كان لكل واحدة منهن دور هام في حياة نبي، وإن اختلفت أدوارهن ومواقفهن. لكن الذي لاشك فيه أنهن أثرن في حياة هؤلاء الأنبياء الذين جاءوا قبل محمد ﷺ.

- سبع منهن كنَّ زوجات لأنبياء ورسل الله:

- أما إحداهن.. فهي حواء، التي ساهمت في اتباع زوجها آدم لغواية الشيطان، وعصيان الله، فكان لهذا أثره على حياتنا البشرية التي نعيشها الآن نحن بني البشر.
- واثنتان منهن كانتا زوجتين لنبيَّين، فخانتاهما، ورفضتا الإيمان بالله الواحد، وعاشتا في الكفر والضلال، فاستحقتا عذاب الله في الدنيا، في انتظار عقاب الله لهما في الآخرة، إنهما: امرأة نوح عليه السلام، وامرأة لوط عليه السلام.
- وأربع زوجات منهن كن مثالاً للإيمان والتضحية، والدعوة إلى الحق والرشاد.. شاركن أزواجهن الكفاح والصبر، إنهن: سارة وهاجر ورحمة وصافورة.

- خمس منهن كن أمهات لأنبياء ورسل الله، أفاضت كل واحدة منهن على ابنها من فيوضات أمومتها وحنانها ورعايتها، إنهن سارة وهاجر ويوكابد وأليصابات ومريم، ويمكن أن نضيف إليهن آسية امرأة فرعون.

- واحدة منهن كانت أختًا لنبي، تولت رعايته، والحفاظ على حياته، إنها أخت موسى عليه السلام.
- واثنتان منهن كان لكل منهما دور في حياة نبي، رغم أنهما غريبتان عنهما. إنهما زليخة امرأة عزيز مصر وصاحباتها، وبلقيس ملكة سبأ.

وقد راعيت في دراسة هذه الشخصيات عدة حقائق منها:

1) الاعتماد في دراسة هذه الشخصيات على ما جاء في القرآن الكريم والكتاب المقدس، بعهديه القديم (التوراة) والحديث (الأناجيل) ما دام التوافق بينهما قائمًا، فإن كان هناك اختلاف، غلبت حقائق القرآن الكريم على ما عداه.
2) إلقاء الضوء على سيرة حياة كل نبي، مع إبراز دور المرأة التي كان لها مواقف في حياته.
3) التعرف على العصر التاريخي الذي كانت تعيش فيه هذه الشخصيات، وقد رتبت هذه الشخصيات على أساس ظهورها على مسرح التاريخ، منذ آدم عليه السلام، حتى كانت دعوة الإسلام.
4) عرض كثير من الحقائق السياسية والدينية والجغرافية والأماكن التي وقعت فيها هذه الحقائق، باعتبارها المسرح الذي دارت عليه هذه الأحداث.
5) التعرُض لدراسة بعض القضايا والآراء التي ترتبط بهذه الشخصيات، وتوضيح ما غمض من حقائق التبست على بعض الرواة والكتاب السابقين.
6) أما بالنسبة للنساء في حياة رسول الله محمد ﷺ، فإنهن كثيرات، آمل أن تساعدني الظروف، فأفرد لهن كتابًا خاصًا بهن.

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما أردت.

والله ولي التوفيق، وعليه قصد السبيل.

المؤلف

فتحي فوزي عبد المعطي

الفصل الأول

حَــــــوَّاء

زوج آدم عليه السلام(*)

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 35].

﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: 117].

(*) مما يؤكد أن آدم كان نبيًا، ولم يكن رسولاً (لأن نوحًا هو أول الرسل): عن أبي أمامة الباهلي أن رجلاً قال: يا رسول الله: أنبيًا كان آدم؟ قال الرسول ﷺ: «نعم. تكلم» فقال الرجل: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال الرسول ﷺ: «عشرة قرون» رواه الطبراني في الكبير 7545 وابن حبان 619.

[قصص القرآن الكريم ص٣٥]

(1)

كان ذلك منذ ما يقرب من ثمانية آلاف عام[1].

خلق الله آدم[2] من صلصال من طين، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة، وعلمه الأسماء كلها، وفضله على كثير من خلقه.

---

(1) قدَّر العلماء الجيولوجيُّون عمر الأرض بأكثر من أربعة آلاف مليون سنة، منذ خلقها الله حتى الآن، وحدَّدوا عمر الإنسان على وجه الأرض بمدة ضئيلة، قدَّرها بعضهم أنها لا تتجاوز عدة آلاف من السنين (15000) خمسة عشر ألف سنة، ولو فرضنا أن عمر الأرض عام واحد، فإن عمر الجنس البشري على هذه الأرض يساوي دقيقة واحدة!! أي أن عمر الإنسان على وجه الأرض دقيقة بالنسبة لـ 365 يومًا × 24 ساعة × 60 دقيقة، وقالوا: إن الإنسان ولد على وجه الأرض في الدقيقة الستين من الساعة الرابعة والعشرين من يوم 31 ديسمبر!! هذا تعريف لنشأة الجنس البشري. وقد تعددت الآراء واختلفت في آدم الذي خلقه الله وسواه، وأسكنه الجنة، هل هو جد البشرية؟ أم أنه آدم آخر خلق منذ مليون سنة، وأن آدم الذي أسكنه الله الجنة متطور من آدم القديم، ولكل رأي ووجهة نظر، وربما تكشف الأيام لنا بعد ذلك صحة أحد الرأيين، حين تبوح الأرض بما في باطنها من دفائن وحفريات وأسرار، لنصل إلى رأي غير هذا وذاك.

(2) ذكر آدم بلفظه في القرآن الكريم 25 مرة، كان أكثرها في سور: طه والأعراف والبقرة، كما ذكر في العهد القديم أكثر من مرة في سفر التكوين.. لكن حواء لم تذكر في القرآن الكريم ولو مرة، ولكنها ذكرت بخلقها كزوج لآدم، كما ذكرت باسمها أكثر من مرة في بعض آيات العهد القديم (ودعا آدم امرأته حواء أمَّ كل حي) الإصحاح الثالث تكوين فقرة 20، وكذا في الإصحاح الرابع تكوين فقرة 1، وقال بعض العلماء والرواة السابقين: إن حواء خلقت من أحد أضلاع آدم، ولكن القرآن الكريم لم يذكر هذا، وكل ما ذكره أن الله خلقهما (آدم وحواء) من نفس واحدة أما العهد القديم (التوراة) فذكر ما يعني أن حواء خلقت من ضلع آدم.

ففي الإصحاح الثاني تكوين 21، 22: (فأوقع الرب الإله سباتًا على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه، وملأ مكانها لحمًا، وبنى الإله الرب الضلع التي أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلى آدم)، وقد ورد اسم آدم في أحاديث نبوية كثيرة.

ولعل هذا يتفق مع حديث رسول الله ﷺ الذي قال فيه: «استوصوا بالنساء خيرًا، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج».

[رواه مسلم - باب الوصايا بالنساء ص 178]

كذلك ذكر اسم حواء باسمها ولفظها في حديث لرسول الله ﷺ أنه قال: «لولا بني إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها». والفعل خنز: بمعنى أنتن، وفسدت ريحه.

[رواه البخاري عن أبي هريرة 3152 جـ3 ص 1245]



أسكن الله آدم في الجنة، ومن نفسه خلق له زوجه حواء، يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: 1].

ـ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: 21].

ـ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189].

ـ ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: 6].

ومنذ خلق الله حواء من نفس آدم، وهي تشاركه حياة الجنة التي أسكنها الله لهما.. ينعمان بخيرها، ويطعمان من ألذ أطعمتها، ويتناولان ما طاب لهما من خير فاكهتها، ويشربان من أعذب مائها، ويستنشقان عبيرها، ويلبسان أفخر الثياب، وأحسنها سترًا.. لا يحسان في هذه الجنة بالحر، ولا بالبرد.. يتنقلان بين خمائل الأشجار الباسقة.. حياتهما رغدة سعيدة.. كل أمورهما ميسرة لهما، تمر بهما الأيام عذبة صافية، لم تعرف الدموع طريقها إلى وجنتيهما، تزين الابتسامة وجهيهما، لم تعرف الغيوم صفحة سمائهما.

وقال الله لآدم يخبره بفضله ونعمه في الجنة:

ـ ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾ [طه: 118 ـ 119].

هكذا بدأ آدم وحواء حياتهما.. النعيم والخير، تتدلى لهما ثمار الفاكهة، فيقطفان منها ما لذ وطاب، سعيدين.. هانئين، لا تعب ولا نصب، ولا عمل شاقًا عليهما أن يؤدياه، وإنما هي راحة تامة، ونعيم مقيم.

(2)

عاش آدم وحواء في الجنة التي أوجدها الله لهما.. هانئين منعمين، يأكلان مما فيها، متى شاءا، وكيف ومما شاءا.

لكن الله حذرهما من شجرة معينة[1]، لعله أشار لهما إليها، أو سماها لهما، حذرهما من أن يأكلا من هذه الشجرة، بل حذرهما حتى من أن يقتربا منها؛ حيث قال تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 19].

لكن إبليس حقد على آدم وحواء سعادتهما في جنة ربهما، ودفعه إلى غوايتهما، ليدفعهما إلى الأكل من الشجرة المحرمة رغم تحذير الله لهما، فاستمع آدم إلى غواية الشيطان.. نسي أن إبليس هذا هو عدو له، أنكر عليه ما وهبه الله من فضل، وقال لربه حين أمره أن يسجد لآدم:

ـ ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: 12].

نسي آدم كراهية إبليس له، وأن الله حذره منه، وصدق آدم إبليس وهو يناديه:

ـ ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى﴾ [طه: 120].

(1) أبهم الله اسم هذه الشجرة، فلم يحددها في القرآن الكريم لحكمة يعلمها، قال بعض العلماء: إنها شجرة الحنطة، وقال آخرون: إنها شجرة العنب، وقال فريق ثالث: إنها غير هذه وتلك، ولعل هذا الإبهام دفع كثيرًا من العلماء إلى أن يتعرفوا على حقيقتها، وفلسفة تحريمها، أجمع كثير من العلماء، ولعلهم أصابوا الحقيقة، فقالوا إنها شجرة الحنطة (القمح) شاء الله لهما أن يأكلا منها، لأن طعامها لا يستطيع الإنسان الحصول عليه إلا بعد جهد شاق، فهي تزرع وتروى، حتى إذا حصدت، تدرس وتذرى، للحصول على حبوبها، ثم تطحن هذه الحبوب، وتعجن وتخبز، لتصير خبزًا صالحًا، لإطعام الإنسان، وكل مرحلة من هذه المراحل، تحتاج إلى مجهود شاق، وعمل مضن، ولعل آدم وحواء أعجبهما منظر هذه الشجرة وسنبلتها الذهبية.

وهؤلاء استدلوا على هذه الحقيقة، حين علموا أن الله بعد أن أهبط آدم من الجنة بعث الله جبريل بسبع حبات من القمح، فقال آدم:

ـ ما هذا؟

قال جبريل:

ـ هذه الشجرة التي نهاكم الله عن الأكل منها.

قال آدم:

ـ فماذا نفعل بها؟

قال جبريل؟

ـ ابذرها، فتنبت.

فبذرها آدم، فنبتت، وكبرت وأثمرت قمحًا فقال لجبريل:

ـ فماذا أفعل؟

قال جبريل:

ـ اطحن هذا القمح، واعجنه واخبزه، ليكون طعامًا لكما.

وهكذا اختار آدم وحواء طريق التعب والمشاق لكي يحصلا على طعامهما، بعد أن كانا يعيشان في الجنة بلا تعب ولا مشقة، يأكلان من ثمارها ما شاءا.

نسي آدم نصيحة الله له واستمع إلى نصيحة الشيطان، على أمل أن يكون مخلدًا، وعلى أساس أن هذه الشجرة المحرَّمة عليه هي شجرة الخلد، لم يفطن آدم إلى مكر إبليس وأنه قال لربه ذات يوم، وكان آدم يسمعه، ما يؤكد إصراره على فتنة بني الإنسان وغوايتهم، بل إن إبليس طلب من الله أن يمدَّ له في عمره، حتى نهاية العالم، ليستمر على عهده في غوايته للبشر، غواية آدم ومن بعده أولاده وأحفاده، حين قال لربه:

ـ ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: 36 ـ 40].

وقد أكد الرسول ﷺ هذه الحقيقة؛ حقيقة غواية الشيطان لبني آدم، فقال: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرافه».

[رواه أحمد 5900، والنسائي 6/ 21 (البداية والنهاية ج1 ص85)]

(3)

للأسف.. استجاب آدم لغواية إبليس.. اقترب هو وحواء من الشجرة.. لعل منظرها أعجبهما، وخيل إليهما أنهما سيخلدان؛ إن أكلا من هذه الشجرة.. أنهما سيبقيان في هذه الجنة مدى حياتهما.

لاشك أن آدم تردَّد في أول الأمر، أصبح بين الشك في غواية إبليس، وخوفه مما حذره الله، ولعله ابتعد عن تلك الشجرة، ثم عاد إليها، وما يزال الشيطان يوسوس له، حتى أنساه أمر الله له!!

لم يذكر القرآن الكريم موقف حواء من هذه الغواية، هل ذكَّرت آدم بتحذير الله لهما منها؟ أم شجعته على الأكل منها، ولكن الثابت أن حواء كانت مصاحبة لآدم، ومشاركة له في العصيان؛ إذ أكلت من الشجرة المحرمة، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 19].

فوجَّه الله الخطاب إلى آدم وحواء، وحذرهما معًا من الأكل من هذه الشجرة، ومن الطبيعي أن كلاً منهما سمع نصيحة الله.

صحيح أن خطاب إبليس في أحد المواقف كان موجهًا إلى آدم وحده، كما جاء في قوله تعالى:

ـ ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى﴾ [طه: 120].

ولكن القرآن الكريم في آية أخرى، أشرك الطرفين: آدم وحواء، كما جاء في قوله تعالى حين خاطبهما إبليس، يحرضهما على عصيان الله:

ـ ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: 20 ـ 22].

أي أن حواء كانت شريكة في الخطيئة، والاستماع إلى نصيحة إبليس!!

بل إن العهد القديم (التوراة) ألقى التبعة كلها على حواء، لأنها استمعت إلى غواية الحية (بدلاً من إبليس)، فأغرت هي (حواء) آدم بأن يأكلا من الشجرة المحرَّمة[1] وإن كانت التوراة قد أدخلت طرفًا ثالثًا في القصة هي الحية بدلاً من إبليس.

ومعنى أن الله عاقب آدم وحواء، وأهبطهما من الجنة، بعد أن انكشفت عورتاهما، أن حواء كانت شريكة لآدم في الذنب، وإلا لعاقب الله آدم دون حواء، لكن الله عاقب الاثنين، أي أن الخطيئة كانت لآدم وزوجه حواء[2].

(1) (كانت الحيَّة أحيَل جميع حيوانات البرية حيلة، فقالت للمرأة:

ـ أحقًا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟

قالت المرأة للحية:

ـ من ثمر الجنة نأكل، أما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة، فقال الله: لا تأكلا منها لئلا تموتا.

فقالت الحية للمرأة:

ـ لن تموتا، بل الله علم أنه يوم تأكلان منها تتفتح أعينكما، وتكونان عارفين الخير والشر.

فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية المنظر، فأخذت من ثمرها، وأكلت، وأعطت رجلها أيضًا منها، فأكلا، فانفتحت أعينهما، وعلما أنهما عريانان) سفر التكوين الإصحاح الثالث فقرات 1 – 7.

ومعنى هذا أن حواء هي التي دفعت آدم، وشجعته على أن يأكل من الشجرة المحرمة.

(2) يذكر بعض الرواة أن الله لما أمر آدم وحواء بقوله (لا تقربا هذه الشجرة) قالا: نحن لا نقربها، ولم يذكرا في قولهما (إن شاء الله)، ولعلهما حين أكلا نسيا قول الله لهما، فكان هذا جزاء لهما.

(4)

أخطأ آدم وحواء حين أكلا من الشجرة المحرمة، واستمعا إلى غواية إبليس، ونسيا نصيحة الله لهما.

ما كاد ثمر هذه الشجرة المحرمة يصل إلى جوف آدم وحواء، حتى أدركا أنهما عاريان. انكشفت عورتاهما، فكان عليهما أن يداريا سوأتيهما، فراحا يقطفان من بعض أشجار الجنة أوراقها، ليداريا بها عورتيهما.. لعل هذه الأشجار كانت شجرة التين[1]، أو شجرة الموز، لاتساع مساحة الورقة[2].

كبرت حسرة آدم وحواء على ما أصابهما، وهما يسمعان نداء الله لهما:

ـ ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: 22].

ولأن الخطاب موجه إلى اثنين، فهذا يعني كما ذكرنا أن الاثنين حواء وآدم قد أخطأا.

وسمع آدم وحواء عقاب الله لهما، وتذكيرهما بسوء ما فعلا، فحاولا أن يبررا خطأهما، ليعفو الله عنهما، لعلهما بذلك أرادا أن يبقيهما الله في الجنة رغم ما ارتكباه من خطيئة، فقالا.. أي آدم وحواء:

ـ ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23].

كان من الممكن أن يكون جزاؤهما أن يدخلهما الله النار، لكن الله قبل توبتهما، لتكون هذه التوبة للإنسان تكفيرًا عن خطئه، على ألا يعود إلى مثل ما فعله، ولتكون هذه التوبة إحدى الطرق إلى الهداية، والعودة إلى الصواب.

---

(1) ذكر العهد القديم أنها شجرة التين (الإصحاح الثالث من سفر التكوين فقرة ٧).

(2) جاء في العهد القديم أنه بعد أن أخطأ آدم وحواء فأكلا من الشجرة المحرمة عليهما قال الله لحواء:

ـ (تكثيرًا أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولادك، وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك).

[الإصحاح الثالث تكوين فقرة 16]

وقال الله لآدم:

ـ (لأنك سمعت لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً: لا تأكل منها.. ملعونة الأرض بسببك.. بالتعب تأكل منها.. كل أيام حياتك، بعرق وجهك تأكل خبزًا، حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها؛ لأنك من تراب، وإلى التراب تعود). [الإصحاح الثالث تكوين فقرة 17، 19].

وهكذا كتب الله على بني آدم التعب والشقاء في هذه الحياة الدنيا، وهو ما ندركه نحن وما نقاسيه الآن!!

لم يعاقب الله آدم وحواء بالنار، ولكنه عاقبهما بعقاب آخر يستطيعان به أن يكفّرا عن خطئهما.. أخرجهما الله من هذه الجنة التي كانا يسكنان فيها، وقال لهما ومعهما إبليس شريكهما في الجريمة:

ـ ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: 123].

ـ ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: 24 ـ 25].

وبمناسبة هبوط آدم وحواء من الجنة. ترى؟ أين كانت توجد هذه الجنة؟ هل كانت في الأرض، أم في السماء؟ وهل هي جنة المأوى، أي جنة الخلد التي وعد الله بها عباده المتقين؟ أم جنة أخرى غيرها؟ وإذا كانت هذه الجنة في الأرض، فأين كانت؟

سؤال أبهم الله إجابته، وسنحاول الإجابة عنه.

يجب في أول الأمر أن نقول: إن هذه الجنة ليست جنة المأوى التي هي جنة الخلد للأسباب الآتية:

(1) لأن جنة الخلد أو المأوى ليس فيها شجرة محرمة، كل ما فيها حلال على أصحاب هذه الجنة، لكن الجنة التي كان يعيش فيها آدم وحواء، كان فيها شجرة محرمة ثمارها عليهما، هذا الذي نص عليه القرآن الكريم خلال أحداث قصة آدم وحواء.

(2) من يدخل جنة الخلد، يستمر فيها خالدًا مخلدًا.. لا يطرد منها، لكن آدم وحواء طردا من الجنة، فهي ليست جنة الخلد.

(3) جنة الخلد: أصحابها لا يعصون ربهم، ولا يستطيع إبليس أن يدخلها، ولا أن يوسوس لمن فيها، لكن إبليس دخل جنة آدم وحواء، ووسوس لهما، فهي ليست جنة الخلد وإنما هي جنة أخرى غيرها.

إذن أين كانت جنة آدم وحواء؟! هل في السماء أم في الأرض؟

الذين قالوا إن هذه الجنة كانت في السماء، وليست في الأرض، استدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا﴾، واعتبروا الهبوط من عال إلى أسفل، أي من السماء إلى الأرض.

وهؤلاء قد جانبهم الصواب، فليس كل هبوط يكون من السماء إلى الأرض، قد يكون الهبوط من الأرض إلى الأرض نفسها.

يؤكد هذا قول الله سبحانه وتعالى لنوح عليه السلام بعد انتهاء الطوفان ورسو السفينة على جبل الجودي:

ـ ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ [هود: 48].

وفي قوله تعالى على لسان موسى لبني إسرائيل، حينما لم يعجبهم المن والسلوى، وطلبوا أن يكون في طعامهم اللحم والعدس والبصل وغيرها، قال موسى لهم:

ـ ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: 61].

مصر هنا قد تكون مصر المعروفة، وقد تكون أي دولة (مصر جمعها أمصار) أي ولاية، وكان بنو إسرائيل يسكنون سيناء. أي أن هبوطهم من الأرض إلى الأرض.

وعلى ذلك يمكن أن نقول إن جنة آدم وحواء كانت في الأرض، وليست في السماء، ولعلها كانت في مكان مرتفع، أي جبل عال بالنسبة لما حوله، وقد ذكرت التوراة أنها كانت جنة عدن[1] ومن خلال ما جاء في سفر التكوين ما يؤكد هذا، ولا بأس من أن نأخذ به مادام لا يتعارض مع القرآن الكريم.

(5)

هبط آدم وحواء إلى الأرض، ليزاولا الحياة في الدنيا التي كتبها الله عليهما، من نصب وتعب ومشاكل وأحداث وصراعات بين الجنس البشري، وما يكون بينهما من عواطف وانفعالات أو كراهية.. تلك التي نعيشها الآن نحن بني البشر.

---

(1) وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقًا وضع هناك آدم الذي جبله، وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة، من هناك ينقسم فيصير أربعة رءوس، واسم النهر الثاني جيحون وهو المحيط، يجمع أرض كوش واسم النهر الثالث حداقل وهو الجاري شرق آشور دجلة، والنهر الرابع الفرات.

[الإصحاح الثاني تكوين فقرات 8 ـ 13]

وهذا يعني أن جنة آدم كانت تقع في غرب آسيا، ولعلها كانت توجد في إيران وشرق العراق.

وحينما نجد أن التوراة قالت بهذا ـ ومعروف أن سفر التكوين من أصدق أسفار التوراة ـ فلا داعي لأن نكذبه، ولعل هذا أنسب مكان لجنة آدم، ولعل هذا يعطي فكرة عن المكان الذي أهبط الله فيه آدم وحواء، والذي تقول الدلائل إنه كان ببلاد الشام، كما سنتحدث فيما بعد. [المؤلف]

هبط مع حواء وآدم إبليس اللعين، ليصاحبهما، ومن بعدهما أبناءهما وأحفادهما، ليمارس مع الجميع غوايته ووسوسته، لتكون الدنيا كما نعيشها الآن، بما فيها من أخطاء، ولذلك وعد الله عباده الذين لا يتبعون غواية الشيطان، أن يدخلهم جنة الخلد، وأن يعاقب العاصين منهم بتعذيبهم في النار الحامية، ولذلك جعل الله البعث والثواب والعقاب والجنة والنار.

ومن أجل هذا كله بعث الله الرسل إلى البشر في فترات مختلفة من الحياة، قد تتقارب، وقد تتباعد، ليذكِّروا الناس بالله، بعبادته والإيمان بوحدانيته، والبعد عن غواية الشيطان، تلك الصورة التي عاشها آباؤنا، ونحن نعيشها اليوم، وغدًا سيعيشها الأبناء والأحفاد، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

هنا يبدو سؤال.. لم يحدد القرآن الكريم أين هبط آدم وحواء؟ وطبعًا كان معهما إبليس، في أي بقعة من هذه الأرض؟ أعني الكرة الأرضية التي نعيش عليها الآن بخريطتها المعروفة.

الذين زعموا أن جنة آدم كانت في السماء.. حاولوا أن يجعلوا قمة إفرست[1] هي المكان الذي هبط عليه آدم، على اعتبار أن إفرست هي أعلى قمم العالم، وبذلك تكون أقرب مكان في الأرض لهبوط آدم وحواء من السماء.

وقد حاول هؤلاء الذين قالوا بهذا الرأي أن يزعموا أن آدم هبط على قمة إفرست بالهند، بينما نزلت حواء في مكة (لماذا فرقوا بينهما؟!) لا أدري، وقال هؤلاء فيما قالوه إن آدم استمر يبحث عن صاحبته حواء، وإن الله أوحى إليه أن يذهب إلى مكة، ليبني له بيتًا (لعله قواعد البيت الحرام الذي رفعه إبراهيم عليه السلام بعد ذلك بأكثر من ثلاثة آلاف عام) وإن الله قال له: فأته وطف به كما يطاف حول العرش، وصل عنده كما تصلي عند عرشي، فهنالك أستجيب لدعائك، فانطلق آدم من أرض الهند إلى مكة، وقيض الله ملكًا يرشده، وكان يبحث عن حواء، حتى وجدها، فازدلف إليها في المكان المعروف الآن باسم المزدلفة، وتعارفا بعرفات، على ذلك الجبل الذي يعتبر الوقوف عليه أهم أركان الحج.

(1) قمة إفرست: إحدى قمم جبال هملايا، وهي أعلى قمة في العالم، يصل ارتفاعها إلى 8850 مترًا فوق سطح البحر، وهذه القمة جزء من جبال هملايا الالتوائية التي ترجع إلى الزمن الثالث الجيولوجي والتي حدثت نتيجة حركة التواء في القشرة الأرضية، وهذه الجبال سلسلة تمتد شمال الهند من الغرب إلى الشرق.

هذا ما قاله الذين اعتبروا أن جنة آدم كانت في السماء، وهؤلاء لم يقيموا على قولهم هذا نصًا من القرآن الكريم، ولا حتى من التوراة، وكل ما اعتمدوا عليه هي نظريات وآراء وافتراضات، قد يأتي اليوم الذي يثبت خطؤها أو صحتها.

وممن قالوا بهذا الرأي: الثعالبي في كتابه عرائس المجالس ص35، والطبري في كتابه تاريخ الأمم والملوك ص74، وتابعهما في هذا الرأي مؤلف أطلس تاريخ الأنبياء والرسل سامي المغلوت ص26.

آراء كثيرة، اختلفت وتعددت، وتنوعت مصادرها.

لكن نظرة فاحصة على ظروف العالم في تلك الفترة التي سبقت حاضرنا الآن بحوالي ثمانية آلاف عام، وهي فترة محدودة لا تعطي فرصة لاختلاف الخريطة الجغرافية عما هي عليه الآن.

صحيح أنه قد حدثت اختلافات جغرافية قد تكون نتيجة للكلف الشمسي، أو نظرية زحزحة القارات، وما صاحب هذا من تغيرات مناخية وتضاريسية، وتوزيع اليابس والماء، ولكن المعروف أن الإنسان ظهر على وجه الأرض في أواخر عصر[1] البلايستوسين أحد عصور الزمن الرابع، بل آخره، ومدة ثمانية الآلاف عام لا تسمح بتغييرات كثيرة في التضاريس ولا في الظروف المناخية.

وعلى ذلك إذا تخيلنا خريطة العالم في فترة بداية حياة الإنسان على وجه الأرض، لا نجدها تختلف كثيرًا عما هي عليه الآن.

فأين المكان الذي يناسب حياة البشر بعد هبوط آدم إلى الأرض؟!

علينا أن نستبعد الأجزاء الشمالية من العالم، لأنها باردة جدًا، كذلك الأجزاء الوسطى التي تدخل في الحزام الاستوائي، لأنها حارة جدًا، وكلتا المنطقتين لا تسمح بقيام حياة بشرية.

---

(١) عصر الهولوسين: آخر فترة في عصر البلايوستوسين.
وقد عرفت هذه الأزمنة الجيولوجية عن طريق تحلل المواد المشعة أو تحليل اليورانيوم إلى رصاص، مع دراسة تطور الحياة على وجه الأرض، وتحديد الطبقات الرسوبية، ودراسة حركات القشرة الأرضية، وما أصابها من التواءات أو انكسارات أو براكين وكلها دراسات جيولوجية وعلمية.

إذن تكون منطقة الوسط هي أنسب المناطق للحياة البشرية، ولعل أهم هذه المناطق هي أرض الشام، وما جاورها من مناطق في العراق وإيران.. هذا ما أراه، وهو رأي قابل للنقاش، ولكني أستدل على ذلك بعدة حقائق منها:

(1) أن هذه المنطقة هي أنسب المناطق مناخًا لاعتدال مناخها.

(2) أن هذه المنطقة هي أنسب المناطق، لاستواء سهولها واتساعها.

(3) هذه المنطقة غزيرة الأمطار، فضلاً عن أن الله وهبها عدة أنهار منها نهرا دجلة والفرات.

(4) من دراسة سير الأنبياء والرسل، نعرف أن سفينة نوح عليه السلام (ونوح بينه وبين آدم حوالي ألف عام، وهي فترة لم تحدث فيها تغيرات مناخية كبيرة) هذه السفينة رست على جبل الجودي، وهو جبل أرارات حيث توجد جزيرة ابن عمر، وهذه المنطقة تقع على مقربة من الحدود السورية التركية والعراقية الآن، مما يدل على أن هذه المنطقة كانت موطنًا للجنس البشري في أول عهده بالأرض.

(5) أثبتت بعض الدراسات التاريخية أنه توجد بجبل قاسيون قرب دمشق مغارة تعرف باسم (مغارة الدم)، يقال إن فيها قتل قابيل أخاه هابيل، وهذا يعني أن هذه المنطقة كانت قريبة من المنطقة التي سكنها آدم في أول حياته على الأرض.

على أي حال، هذا الرأي، وهو أن المنطقة التي هبط فيها آدم، كانت المنطقة التي تقع غرب قارة آسيا، ولعله قد أُوحي إلى آدم بعد ذلك أن يذهب إلى مكة ليبني له بيتًا، فلا بأس من أن يكون ذلك صحيحًا، ولكن بعد هبوط آدم بمدة.

(6)

هبط آدم وحواء ومعهما إبليس إلى الأرض.

كان على آدم وحواء أن يأكلا، ليعيشا، ولتستمر بهما الحياة، فكان عليهما أن يشقيا.. انتهت جنة النعيم، وعليهما أن يمارسا حياة الشقاء في الدنيا!!

لك الله يا حواء، لقد كتب عليك أن تتحملي مشقة الحمل والحيض والمخاض والولادة والنفاس، لتورثيها لبنات جنسك من بعدك.

وأنت يا آدم، كُتب عليك أن تشقى من أجل الحصول على كِسْرَة خبز.. تبذر القمح وترويه، وتحصده، ليتحول إلى خبز، يكاد يشفي جوعك، تمشي فوق الصخور والرمال، يدمي الحصى قدميك، تطأ الأشواك، تقاسي لظى الحر، وبرد الشتاء، ترعى بعض الحيوانات، حتى تجد من صوفها وأوبارها ما تجعله ملابس تقيك؛ تقيك الحر والبرد.

* * *

ويقي إبليس على العهد لآدم وحواء، يوسوس لهما، يدفعهما إلى الخطيئة، ويبعدهما عن الحق.

ربما سعد آدم وحواء ذات يوم، حين أنجبا البنين والبنات، ولكن سعادتهما لم تدم حين أصاب الحقد قلب قابيل على أخيه هابيل، وقتله، واشتد حزن آدم وحواء على فلذة كبدهما، ليكون هذا واحدة من مشكلات ومصائب الحياة الدنيا التي يعيشها البشر!!

إنها صورة من صور الحياة التي عاشها آدم وحواء، وما زلنا نحن بني البشر نعيشها، حتى يشاء الله.

ومضت الحياة الدنيا بآدم وحواء وأولادهما وأحفادهما.. مضت بحلوها ومرها، وخيرها وشرها، وأحزانها وأفراحها، حتى شاء الله أن تنتهي الحياة بآدم.. مات، وكان عمره تسعمائة وثلاثين سنة وفق ما جاء في التوراة، فدفنه أبناؤه.. يتقدمهم ابنه شيث[1].

وقد اختلفت الآراء في المكان الذي دفن فيه آدم.

بعد حين.. لحقت حواء بآدم.. ماتت، فدفنت بجواره.

ترى: لو لم يستمع آدم وحواء إلى غواية إبليس، أكان لبني البشر أن تستمر بهم الحياة في الجنة؟!.. الله أعلم.

---

(1) شيث: وهو أشهر أبناء آدم، كان من سلالته نوح عليه السلام.

الفصل الثاني

امْرَأَة نُوحٍ

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾

[التحريم: 10].

(1)

كان قد مضى على هبوط آدم وحواء من الجنة ما يقرب من ألف عام.. عاش فيها أبناء آدم وأحفاده، قائمين على وحدانية الله وعبادته، فقد كان ما حدث لجدهم وجدتهم درسًا، وعوه جيدًا، وانتشرت سلالة آدم في بعض مناطق الأرض؛ ليعمروها، ألم يجعلهم الله خلفاء في الأرض بعد آدم؟

في بلاد الرافدين.. حيث يجري نهرا دجلة والفرات.. استقر بعضٌ من سلالة شيث بن آدم في المنطقة الجنوبية السهلية، يعبدون الله على دين الوحدانية.. وكثر عدد الرجال الصالحين المؤمنين.. كان منهم ودٌّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر.. رجال آمنوا بربهم، وأخلصوا له، فأحبهم الناس، واتخذوهم مثالاً للصلاح والتقوى، وزيادة في تقديرهم أقاموا لهم تماثيل، يتذكرونهم بها، واستمروا على عبادة الله الواحد.

بمرور السنوات.. عبد الناس هذه التماثيل، وانصرفوا عن عبادة ربهم.. اعتبروها آلهة لهم.. يتقربون إليها، ويسجدون ويصلون لها.

لذلك بعث الله إليهم رسولاً، يعيدهم إلى عبادة الله وحده، ونبذ عبادة هذه الأصنام، كان هذا الرسول هو نوح عليه السلام[1] جاءهم بعد آدم بحوالي ألف عام.. كانوا قد ضلوا عن الحقيقة، فشاء الله أن يعيدهم إلى الصواب.

---

(1) هو نوح بن لامك بن متوشالح بن أخنوخ (الذي هو حسب كثير من الآراء نبي الله إدريس عليه السلام) ابن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر، وقيل إن أمه اسمها فينوش التي ينتهي نسبها إلى أخنوخ (إدريس). [كتاب عرائس المجالس للثعلبي ص60].
وقد ذكر اسم نوح في القرآن الكريم ثلاثًا وأربعين مرة، معظمها في سور: هود والشعراء ونوح والأعراف وغافر، ويعتبر نوح ثاني رسول بعد إدريس (على أساس أن آدم نبي، وليس رسولاً).

هكذا بدأت قصة نوح عليه السلام.

رفض القوم دعوة نوح، واستكبروا، وأنكروا عليه ما يدعو إليه من صلاح وإيمان، وقالوا له:

– ﴿.. مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ . .﴾ [هود: 27].

لم يستمع هؤلاء الكفار لنوح، وكانوا كلما دعاهم ﴿. . اسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: 7].

كان من هؤلاء الكافرين امرأة نوح التي أنكرت عليه دعوته، وصبر نوح على قومه؛ جيلاً بعد جيل، حتى يئس منهم، فدعا عليهم:

– ﴿.. رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: 26].

فاستجاب الله دعوته، وأمره أن يصنع سفينة، فصنع نوح السفينة، وأمره الله أن يدخل فيها هو ومن آمنوا به، ثم أسقط الله المطر، وفجَّر من الأرض ينابيع ماء، فتكوَّن طوفان عظيم غطى الأرض، وسارت سفينة نوح فوق صفحة الماء، وغرق الكافرون، وكان منهم امرأة نوح وأحد أبنائه، حتى إذا انتهى كل شيء، أمر الله الأرض، فابتلعت المياه، ورست سفينة نوح على جبل الجودي[1]، ونزل منها المؤمنون، ومعهم الحيوانات، فعمروا الأرض، بعد أن طهرها الله من الكافرين.

(2)

هذه قصة نوح في إيجاز سريع..

الذي يهمنا في هذه القصة هو موقف امرأة نوح الذي استحقت عليه العقاب، والتي وصفها الله بأنها خائنة، وأنذرها بدخولها النار، عقابًا لها على خيانتها لزوجها، وهو رسول مؤمن، صاحب دعوة.

لم يذكر القرآن الكريم اسم امرأة نوح، وكذلك التوراة، لم يرد فيها اسمها، وإن كان بعض الرواة قالوا: إن اسمها والغة[2] دون أن يقيموا على ذلك حجة.

---

(1) الجودي: جبل أرارات يقع قرب حدود العراق مع سوريا وإيران، وفي أعلى قمته تقع جزيرة ابن عمر حيث رست سفينة نوح.

(2) البداية والنهاية لابن كثير ج 1 ص 206.

وسواء كان اسمها والغة أو غيره، فالذي يعنينا هنا موقفها في حياة نوح عليه السلام.

لقد كانت امرأة نوح أقرب الناس إليه؛ فهي زوجته، وأم أولاده، وكان عليها أن تكون أول المؤمنين بدعوة زوجها، لكنها تنكرت له، وكفرت به، وسوَّل لها الشيطان طريقه، ليبعدها عن الإيمان، بل كانت تدفع أبناءها إلى الكفر بدعوة أبيهم، غير عابئة.. تحاكي كهنة الكفر فيما يقولون عن نوح ودعوته.

لم تستطع امرأة نوح أن تقنع ثلاثة من أولادها بالكفر، هم: حام وسام ويافث، وإنما استطاعت بإلحاحها أن تقنع ابنها الرابع يام (كنعان) أن يكفر بأبيه، فكان الاثنان دعاة شر، ورمزًا للكفر والعصيان، يسعدهما زيادة عدد الكافرين.

إن التاريخ لا ينسى لخديجة زوج رسول الله ﷺ موقفها من زوجها محمد، ووقوفها بجانبه، بمالها وحسبها، وكانت تشجعه، وتدفعه إلى الصبر، وتدعو غيرها إلى الإيمان به وبربه، تسرِّي عنه تعبه، ومشقات الدعوة، وتخفف عنه سوء ما يفعله قومه، بهذا أشرقت صفحات تاريخ خديجة.

لكن امرأة نوح كانت على النقيض من ذلك، امرأة متسلطة، تعشق الكفر وتنادي به، وتحرِّض القوم على كراهية نوح، والتنكر لدعوته.

حرصت امرأة نوح أن تتباهى بكفرها بدين زوجها.. تعلن للناس جهرًا أنها لا تصدقه، وتصفه بالأكاذيب والجنون، قابعة هي دائمًا في إسار الكفر والحقد، كلماتها كأنها زفرات حارة، تطلقها من صدرها الذي غلبت عليه غشاوة الكفر والحقد، تعتز بكفرها، فكان الناس يقولون لنوح:

ـ إذا كنت صادقًا في دعوتك، وما تدعو إليه، فلماذا لم تؤمن بك امرأتك، وهي أقرب الناس إليك؟! لا شك في أنها أدركت حقيقتك وكذبك، فكفرت، فكفَّ يا نوح عما تفعل، ولن يفيدنا نصحك لنا.

كثيرًا ما لقيت امرأة نوح زوجها نوحًا بوجه عابس، ونفس شرسة، تلقي على مسامعه كلمات الاستهزاء به، وتنكر عليه ما يدعو إليه، وتحاول أن تصرفه عن دينه، كأنما جندها الشيطان، لتكون لسانًا له.. تنطق باسمه.

كثيرًا ما اجتمعت امرأة نوح بصاحباتها، تحرضهن على الكفر بنوح، وتحثهن على أن يدفعن أزواجهن إلى الكفر به، لتضمن كثيرًا من المعارضين لزوجها.

كانت امرأة نوح نموذجًا للشر، بل هي الشر بعينه.

كثيرًا ما أثارت امرأة نوح الفتنة بين أبنائها وكنائنها[1]، كانت تعلم أنهن آمن بنوح مثل أزواجهن، حتى كنتها التي هي زوجة كنعان، كانت هي الأخرى قد آمنت بدعوة نوح، على كره من زوجها، فوجدت والغة في هذه فرصة لتوغر صدر زوجها كنعان عليها، حتى غدا بيت نوح وهو يموج بمشاكل امرأته.. جحيمًا، وما كانت امرأة نوح تدري أنها بسلوكها هذا تخون زوجها، هكذا عبر القرآن الكريم عن موقفها، هي وامرأة لوط[2] ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي أن المرأتين خانتا زوجيهما بكفرهما.

(3)

حينما أمر الله نوحًا أن يصنع السفينة، وجدتها امرأته فرصة للاستهزاء به، فكانت تقول له:

ـ يا نوح.. أهَجَرت النبوَّة، لأنك فشلت فيها، لتعمل نجارًا؟ لخير لك أن تهجر ما تفعل، وتعود إلى رشدك، وإلى دين آبائك، وتريح خاطرك.

لكن نوحًا لم يستمع إلى كلماتها، وكان مستمرًّا في عمل السفينة، فتقول له امرأته:

ـ ماذا ستفعل بهذه السفينة التي تصنعها؟ أنسيت أنك تعيش على الأرض اليابسة، وليس على نهر أو بحر؟ كيف تسير سفينتك؟ لو استطعت أن أحرق لك السفينة، لفعلت!!

كانت كلمات امرأة نوح له أشبه بخناجر مسمومة، توجهها إلى صدر زوجها الذي يدعوها إلى خير لها في دنياها وآخرتها.. لكنها قد اعتادت أن

(1) الكنائن: مفردها كنة أي زوجة الابن. [قاموس المنجد ص699].

(2) راجع قصة امرأة لوط في الفصل الخامس من هذا الكتاب ص 57.

تنظر إلى الشمس في مغربها، وتتجاهل النظر إليها في مشرقها!! فرانت عليها سحب الظلام.

كانت لدى امرأة نوح جارية تخدمها.. علمت أنها آمنت بنوح، واتبعته، فوطدت نفسها أن تعذبها، حتى تفتنها عن دينها.. لكنها لم تستطع أن تفعل، فأوعزت إلى ابنها كنعان أن يساعدها، لتدفعها إلى الكفر، فما استطاعت هي وابنها أن يصرفا الجارية عن إيمانها، وبقيت الجارية على إيمانها برب سيدها.

لقد كانت امرأة نوح عنوانًا للقسوة، ولو استطاع نوح أن يسرِّحها لفعل، لكنه تحملها على كره منه، وعلى أمل أن يهديها الله ذات يوم، فتعود إلى الصواب.

مضت الأيام، ونوح يصنع السفينة التي أمره الله أن يصنعها.. يتحمل السخرية الموجعة من امرأته، واستهزاء قومه به.

وقال الله لنوح:

- ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: 40].

معنى هذا: أن امرأة نوح، وابنه كنعان لن يدخلا السفينة التي صنعها نوح، فقد كانا كافرين، كتب الله عليهما الهلاك.

ثم أمطرت السماء، وأخرجت عيون الأرض ما في جوفها من مياه، وارتفع الماء، حتى أغرق الأرض التي كان الناس يعيشون على وجهها، واستمر ارتفاع الماء.

حاول نوح أن يستحث امرأته على الإيمان بربه، ويرحم ابنه كنعان بتدبر حقيقة ما سيحدث لهما، ولكنهما لم يستجيبا له، استمرا على كفرهما وعنادهما.

فأما كنعان، فقد زين له الشيطان أنه ناج، حين يصعد الجبل، فلن يغرقه الماء، وأما امرأة نوح، فقد أغواها الشيطان، فبقيت على كفرها على أمل أن تنجو من الفيضان.

وارتفع مستوى الماء، فغمر المنطقة كلها، وسفينة نوح تسير بمن فيها باسم الله مجراها، تحمل عليها المؤمنين الذين كان منهم أبناء نوح: أكبرهم يافث[1] وأوسطهم سام[2] وأصغرهم حام[3] ومعهم زوجاتهم بالإضافة إلى زوجة كنعان، فضلاً عما أخذه نوح معه بأمر من ربه من الحيوانات والوحوش والطيور والبذور من كل زوجين اثنين.

وغرق كنعان بن نوح، وحاول نوح أن يطلب من الله أن ينجيه، فناداه:

ـ ﴿. . رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: 45].

فأجاب الله نوحًا بقوله:

ـ ﴿. . يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: 46].

ذلك لأن كنعان لم يكن مؤمنًا، فليس له حق أن ينتسب إلى نوح، رسول الله.

لاشك أن امرأة نوح، غرقت مع الذين غرقوا، كان هذا جزاؤها في الدنيا، أما في الآخرة، فسيدخلها الله النار، لتنال العذاب الأليم.

شاء الله أن ينتهي الطوفان.. ابتلعت الأرض المياه، وجف اليابس، ورست سفينة نوح باسم الله مرساها، وهبط منها من كتب لهم النجاة من المؤمنين؛ ليعمروا الأرض؛ وليتكاثروا فيها.. إنها مشيئة الله.

وشاء الله لأبناء نوح أن يتناسلوا، وأن يتكاثروا وأن تنتشر ذرياتهم في أماكن كثيرة من العالم.

ولتبقى امرأة نوح رمزًا للكفر، وخيانة زوجها وعصيانه، ولتنال ما أعده الله لها من عقاب الآخرة.

---

(1) يافث: تفرع من سلالته: الأتراك والتتار والديلم ويأجوج ومأجوج والصينيون، وهؤلاء كانوا يسكنون في آسيا، والروم واليونان في أوربا.

(2) سام: ومن أولاده تفرع الأشوريون والعبرانيون والفارسيون الذين كانوا يسكنون جنوب آسيا، والعرب الذين كانوا يسكنون شبه الجزيرة العربية.

(3) حام: ومن أبنائه تفرع: الأحباش والنوبيون والمصريون (الذين ينتسبون إلى بني قبطم بن مصرايم بن حام) وهؤلاء يسكنون إفريقيا، ثم الكنعانيون الذين كانوا يسكنون عرب فلسطين، ثم الهنود.

[بإيجاز من أطلس تاريخ الأنبياء والرسل ص85، 86]

وفي حديث لرسول الله ﷺ أنه قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم».

[رواه عمران بن الحصين]

الفصل الثالث

سَـــــــارَة

زوج إبراهيم وأم إسحق عليهما السلام

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾

[الذاريات: 24 – 30].

(1)

في ليلة غاب قمرها، واختفت نجومها خلف سحب كثيفة، ونشر الظلام أرديته الحالكة على أور[1]، فكساها ثوبًا حالك السواد.. تسلل إبراهيم عليه السلام[2] ومعه زوجه سارة وأخوه ناحور وابن أخيه لوط بن هاران وبعض من آمنوا بإله إبراهيم، يصحبون معهم إبلهم وأغنامهم.. في قافلة تسرع الخطو نحو الشمال، بعيدًا عن أرض الكلدانيين[3].

(1) أور: مدينة صغيرة، تقع في جنوب العراق، غرب نهر الفرات، قبل أن يلتقي بنهر دجلة، كانت هذه المدينة إحدى المدن السومرية الهامة في التاريخ القديم لبلاد الرافدين.

(2) إبراهيم (أبو الأنبياء) هو إبراهيم بن آزر (الذي أسمته التوراة تارخ) بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج ابن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام. [البداية والنهاية ج 1 ص 163].
ذكر اسم إبراهيم في القرآن الكريم تسعًا وستين مرة في عدة سور، كان أكثرها في سور: البقرة وآل عمران وهود والحج والعنكبوت والشعراء، كما ذكر عدة مرات في العهد القديم سفر التكوين في الإصحاحات 12 ـ 18 وذكر في العهد القديم باسم (إبرام)، حاول بعض الكتاب أن يؤكدوا أن اسم أبي إبراهيم هو تارخ، كما جاء في التوراة، وليس اسم آزر كما جاء في القرآن الكريم، وهذا خطأ، فالاسم الصحيح لأبي إبراهيم هو آزر، يؤكد هذا حديث لرسول الله ﷺ أنه قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه... إلخ الحديث» رواه البخاري. [مختصر صحيح البخاري 1440/3350 ص289 ولذلك، فنحن نرى أن صحة اسم أبي إبراهيم هو آزر كما جاء في القرآن الكريم وذكر في الحديث النبوي الشريف. (المؤلف)

(3) كان سبب هروب إبراهيم من بلده أور، أنه عارض عبادة الأصنام والكواكب التي كان يعبدها قومه، ودخل المعبد، وحطم الأصنام، وعلق الفأس في كتف أكبر الأصنام، ولما سألوه عمن فعل هذا، قال:
ـ ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: 63].
طالب الناس بإحراق إبراهيم، فوضعه رجال الملك في منجنيق في النار، ولكن الله جعل النار بردًا وسلامًا عليه، فلم تحرقه، ثم حاج إبراهيم الملك النمرود (هو النمرود بن كنعان بن كوش بن نوح) تاريخ الطبري ج 1 ص 139، وطلب إبراهيم منه أن يأتي بالشمس من المغرب، فعجز الملك أن يفعل، فأمر رجاله أن يقتلوا إبراهيم، وأوحى الله إلى إبراهيم بما انتواه الملك ورجاله، وأمره بالهجرة من أور، فهاجر إبراهيم إلى الشمال.

في هودجين على بعيرين في أحدهما كانت سارة[1] زوج إبراهيم، وفي الهودج الثانى كانت ملكة[2] زوجة ناحور أخي إبراهيم.

وقبل أن تبتعد القافلة كثيرًا عن أور، لحق بهم آزر أبو إبراهيم، رغم أنه كان لايزال على كفره، فقد خشي على نفسه ما قد يصيبه من أذى، بعد هروب ابنه.

سار الجميع في طريقهم نحو الشمال، حتى وصلوا إلى أرض حاران (حران)[3] حيث مات آزر كافرًا، ودفنوه في أرض حاران!!

من حاران.. اتجهت القافلة نحو الشام، ووصلوا إلى دمشق.

من دمشق.. اتجه إبراهيم وزوجه سارة، ومن آمنوا به إلى أرض الكنعانيين؛ ليستقروا فيها.

استقر إبراهيم وزوجه سارة في فلسطين حينًا، يقوم إبراهيم ورجاله على رعي أغنامهم وإبلهم، ويدعون إلى عبادة إله واحد، وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الهجرة في قوله تعالى:

- ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 71].

(2)

لم يستمر بقاء إبراهيم طويلا في أرض كنعان، فقد حدث جدب وقحط، فشاء الله لإبراهيم أن يغادرها، متجهًا في طريقه إلى أرض مصر[4].

غادرت قافلة إبراهيم ومعه زوجه سارة ولوط أرض كنعان، وكان معهم بعض الرجال الذين أنار الله قلوبهم بالهداية، فآمنوا بإله إبراهيم، واتبعوه.

---

(1) سارة بنت هاران عم إبراهيم، لم يذكر اسمها في القرآن الكريم بلفظها، وإنما ذكرت أنها امرأة إبراهيم، وذكرت فى العهد القديم باسم ساراي.

(2) ملكة بنت هاران عم إبراهيم (تكوين الإصحاح الحادي عشر فقرة 3).

(3) أرض حاران (حران) تقع في شمال العرق بين نهري دجلة والفرات (قرب الحدود مع سوريا).

(4) لم يذكر القرآن الكريم قصة مجيء إبراهيم إلى مصر.. خلت منها آياته، لكن العهد القديم تحدث عن هذه الهجرة في الإصحاحين الثاني عشر والثالث عشر من سفر التكوين، ومما جاء فيهما:
(وحدث جوع وقحط في الأرض، فانحدر إبراهيم إلى مصر) [الإصحاح 12 تكوين فقرة 10]

اتجهت القافلة في طريقها نحو الغرب، لعلهم صاحبوا إحدى القوافل التجارية التي كانت تنقل بضائعها بين مصر وفلسطين في ذلك العصر.. حتى وصلوا إلى ساحل البحر الكبير (البحر المتوسط حاليًّا).

وأشرق وجه النهار، فملأ الكون بضوئه الفضي الجميل، حين استأنف المسافرون رحلتهم، مساحلين للبحر، يدفعهم الأمل، ويحدوهم الرجاء، في أن يجدوا في مصر ما يعوضهم عن جدب بلادهم، فقد كانت مصر معروفة بخيرها على مدى تاريخها الطويل.

وصلت قافلة إبراهيم إلى مدينة بليوزم[1] القائمة عند مدخل مصر الشرقي، فهدأوا قليلاً، ليستريحوا، فأحسوا بفيض من الأمن يملأ قلوبهم، وسعدوا بتلك النسمات الرقيقة الندية الشذية التي لامست وجوههم، وأنعشت صدورهم، حتى أنهم نسوا، أو تناسوا مشاق رحلتهم الطويلة.

لكن أمرًا ما أقلق خاطر إبراهيم وزوجه سارة..

لقد علموا فيما علموه عن حاكم مصر[2]، أنه أقام رجالاً له عند حدودها، يخبرونه بمن يدخل من الغرباء إليها، وأن هذا الملك ما يكاد يعلم أن إحدى النساء الجميلات دخلت مصر، حتى يحاول أن يأخذها لنفسه من زوجها، ويعتدي عليها.

لاشك أن إبراهيم حاول أن يخفي أمر سارة الجميلة عن رجال الملك، ولكنهم علموا بها، فذهبوا إلى سيدهم، وقالوا له:

ـ يا سيدي.. لقد قدمت اليوم امرأة جميلة[3]، وضاءة الوجه.. مشرقة السنا.. إنها قادمة من أرض كنعان، مع أنها عجوز إلا أن السنين لم تستطع أن تطمس معالم جمالها، وما ينبغي أن تكون لأحد غيرك!![4].

---

(1) بليوزم: إحدى المدن المصرية القديمة، كانت تقع عند نهاية الفرع الباليوزي، أحد فروع النيل الستة القديمة في ذلك الوقت، عرفت بعد ذلك باسم الفرما.

(2) اختلف الرواة فيمن كان يحكم مصر في الفترة التي جاء إليها إبراهيم.. قال بعضهم: إن ذلك كان في عهد ملوك الأسرة الثانية عشرة، وحدد بعضهم فترة حكم أمنمحات الثاني (1939 ـ 1892ق.م)، وقال آخرون: إن ذلك كان في بداية عهد الهكسوس الذين استولوا على أجزاء من مصر في فترة ضعفها في عصر الدولة الوسطى.

(3) أنكر بعض الرواة على سارة جمالها، وكانت قد جاوزت السبعين من عمرها، لكن هذا غير صحيح، فإن السنين الطويلة لم تستطع أن تخفي معالم جمال سارة، فقد كانت معروفة بوجهها الوضاء.

(4) قال بعض الرواة، وتشيع لهم بعض المفسرين، فزعموا أن إبراهيم طلب من زوجه سارة أن تكذب على الملك، وتدعي أنها أخته، وليست زوجه، على أساس أن الملك يأخذ لنفسه الزوجات، دون الأخوات!! واستدلوا على ذلك بما جاء في العهد القديم سفر التكوين: (قولي إنك أختي، ليكون لي خير نسبك، وتحيا نفسي من أجلك) [الإصحاح الثاني عشر سفر 12]

(3)

ما كاد إبراهيم وسارة ومن معهما يدخلون أرض مصر، حتى علموا بسيرة هذا الملك الظالم الذي يقتنص النساء لنفسه، دون مراعاة لمشاعر أزواجهن. ومن أجل ذلك أحست سارة بعدم الأمان على نفسها.. ليتها لم تأت إلى مصر، ليتها لم تغادر أرض أور، لكن إبراهيم كان يطمئنها فالله معها سيحفظها، كما حفظ إبراهيم من نار النمرود، وجعلها بردًا وسلامًا عليه.

في ليلة ما، وبطريقة ما، استطاع رجال الملك أن يصلوا إلى حيث كان يقيم إبراهيم وزوجه سارة، دلهم عليهم بعض الذين أعجبوا بجمال سارة، فأدركوا ما ينتظرها.

أخذ رجال الملك سارة، وذهبوا بها إلى قصر الملك بين لهفتها على نفسها، وحزن إبراهيم على ما أصابها، وما يملك إبراهيم إلا أن يدعو الله أن يحفظ سارة من شر هذا الملك الظالم، وما كان لسارة أن تقع في هذا المأزق، وما تملك وهي تهيئ نفسها لمحنتها إلا أن تمسح على عينيها المخضبتين بالدموع، خوفًا وقلقًا، تناجي ربها أن يقف معها، أن يبعد عنها شر هذا الملك الظالم.

كان قصر الملك فخمًا.. زينه بالتحف والصور الفرعونية، وجعل فيه ردهات وحجرات عديدة، وكان القصر يتوسط مساحة واسعة من الخضرة، تكاثرت في حديقته الخمائل الباسقة.

وإذا كانت سارة قد ذهبت إلى قصر الملك، فقد بقي إبراهيم يدعو ربه، وصورة سارة لا تفارق ذهنه.

لك الله يا سارة، ربما تذكرت سارة يوم دفعوا بزوجها إلى النار، فلم تصبه، فلعل الله يحول بينها وبين ما يشاؤه هذا الظالم الكافر، وهي في ديار غريبة.. تقاسي الوحدة، وتعاني الخوف والفضيحة التي يحاول هذا الظالم أن يلصقها بها.

كانت سارة جميلة حقًا، زادتها الزينة جمالاً على جمالها، مما جعل جواري القصر ووصيفاته يدركن أنها لن تفلت من الملك، وأنه لن يدعها إلا إذا أخذ منها مآربه، ولن يمنعه مانع، أو يحول بينهما حائل، وهما في حجرة مغلقة، ولا حول لها ولا قوة إلا الإذعان لمشيئته.

في ناحية من القصر، كانت إحدى الجواري تتابع سارة، أشفقت عليها، فحاولت أن تطمئنها، تصرف عنها أحزانها، كانت هذه الجارية واحدة من جواري القصر اللائي ينكرن على الملك ما يفعله.. مشفقات على ما يحدث لبني جنسهن من سوء.

كانت هذه الجارية هي هاجر[1]..

ترى هل كانت هاجر، وهي مشفقة على سارة تدرك أنهما الاثنتين سيكون لهما معًا في التاريخ صفحات مضيئة يتناقلها الخلف من السلف؟!

* * *

أدخلوا سارة إلى حجرة الملك، وهي في أبهى زينتها، فاستقبلها بسعادة، تنفرج شفتاه عن ابتسامة مرسومة على وجهه، يحاول فيها أن يضفي على سارة الأمن، لكن وجهه بدا أمام سارة كحيوان مفترس، يكاد ينقض على فريسته، فاستعاذت بالله من شره، وابتعدت عنه.

اقترب الملك من سارة، فابتعدت عنه، وكلما حاول الاقتراب منها، ازدادت عنه بعدًا.. نفرت منه، حتى إذا أحس الملك أن الفريسة ستضيع منه، سيفقد هذا الجمال الرائع، أمسك بسارة محاولاً أن يدفعها إليه دفعًا.

لكن يدي الملك قُبضتا إليه.. غُلتا إلى صدره، كأنما شلتا!! وأحس كأنه يتيه في الحجرة، يتخبط في بحر من الظلام، كأن سحابة تغشي عينيه، فلا يرى ما حوله!!

صورة جديدة على الملك، لم يعرفها مع نساء أخريات، كن له طوعًا.

كانت سارة ما تزال تدعو الله أن يخلصها، فقال لها الملك في غلظة:

---

(1) كانت هاجر إحدى أميرات منف، عدا عليها الأعداء، فأسروها، وأخذوها إلى قصر الملك، لتكون واحدة من جواريه.

ـ فمن تدعينه أيتها المرأة؟!

قالت سارة في ثقة المؤمنة بربها:

ـ الله رب السموات والأرض الذي خلقني، أدعوه أن يخلصني من سوء ما تريده.

في لهجة يأس.. قال الملك لسارة:

ـ فادعي ربك أن يطلق يدي، ولن أعود إلى ما فعلت.

فدعت سارة ربها، وكان الله بها كريمًا، فك إسار يدي الملك، لتعودا إلى طبيعتهما، لعله يتعظ.

لكن الملك عاود الاقتراب من سارة، محاولاً أن يأخذها لنفسه.

ثلاث مرات، وفي كل مرة يرجو الملك سارة أن تدعو ربها، ليفك إسار يديه.

من خلال مواقف الملك، وما أصابه ثلاث مرات، أحست سارة أن الله معها.. لم يتركها وحدها في مواجهة هذا الكافر الظالم.. أبقى لها طهارتها، بينما كان الملك يبتعد عنها، وهو يشعر أن في هذه المرأة أمرًا غريبًا.

لم ينم الملك ليلته، لازمه طائف من السهد، يفكر في أمر هذه المرأة التي استعصت عليه، فأفلتت منه، وما يزال جمال صورتها لا يفارقه.

* * *

ما كاد صباح اليوم التالي يشرق.. حتى استيقظ الملك فزعًا على حلم، لقد رأى الملك كأن فحلاً فاغرًا فاه، يقف بينه وبين هذه المرأة، يخيل إليه أن ذلك الفحل الذي رآه في نومه يكاد يهجم عليه، ليفتك به!! ففاض به الخوف، وغلبه على آماله، وكأنما انطفأ نور عينيه، فلم يعد يرى طريقه، حتى إذا لقيه بعض رجاله، قال لهم:

ـ ما حقيقة أمر هذه المرأة؟ لقد أتيتموني بشيطان.. ردُّني عنها.

كانت صورة ما حدث للملك مع سارة ماثلة أمام عينيه، لا تفارقه، تخالطها صورة هذا الفحل من الإبل الذي يكاد يلتهمه.

عند ذلك همس في أذن الملك أحد الكهنة، وقال له:

ـ يا سيدي.. هذه زوجة رجل طيب، شيخ، يدعو الناس إلى دين جديد.. جاء إلى مصر، يبحث عن كلأ لأغنامه وإبله، بعيدًا عن جدب الأرض في أرض كنعان، إنه رجل مبارك، يدعو الناس إلى عبادة إله واحد، يقول إنه هو الذي خلق الكون والنجوم والشمس والقمر، وهو الذي يحيي ويميت.

وما يملك الملك إلا أن يطلق سراح سارة، لتعود إلى زوجها إبراهيم، وكان مايزال في انتظارها، يدعو الله، يصلي له ويناجيه، فما كاد ينتهي من صلاته، حتى أقبلت إليه سارة بوجهها المشرق، تعلوها الفرحة، وهي تقول له:

ـ الحمد لله.. كفَّ الله يد الفاجر عني، حفظني من شره، خيَّب آماله، حفظني منه، كما حفظك يا إبراهيم من نار النمرود، إنها مشيئة الله ونعمه علينا.

كم سعد إبراهيم وسارة، وكانا أكثر سعادة أن يكون ما حدث معجزة من الله، أجراها على يد سارة المؤمنة.

بعد حين.. أقبل رجال الملك إلى حيث كان يسكن إبراهيم وزوجه، وباحترام ومودة، أخذوه إلى قصر الملك، فلقيه الملك بمحبة وترحاب، وأجلسه في مجلس يليق بمكانته كشيخ مبارك، وأمر رجاله أن يمنحوه مالاً وإبلاً وأغنامًا، ليمضي في مصر حيث يشاء.

ويعث الملك إلى سارة بجارية تخدمها.

كانت هذه الجارية هي هاجر.. سعدت بها سارة كثيرًا، فقد كانت أكرم الجواري معها في محنتها، ليكتب لهاجر وسارة في الحياة صفحات جديدة من صفحات التاريخ.

ترى؟ هل آمن ذلك الملك بإله إبراهيم؟!

(4)

شاء الله لإبراهيم أن يجوب بعض المدن المصرية، يبذر بذور دعوة التوحيد التي سيتعهدها من بعده حفيده يوسف عليه السلام، ثم عاد ركب إبراهيم إلى أرض كنعان بعد أن حقق الله مشيئته.

صحبت هاجر[1] إبراهيم وسارة في عودتهما إلى كنعان، ترعى شئون سيدتها التي سعدت كثيرًا بصحبتها، وكلماتها الرقيقة والطيبة لا تفارقها، وأحست هاجر وهي في صحبة إبراهيم وسارة كأن الله أنعم عليها بالحرية بعد أن كان الملك يكبلها بقيود الأسر والعبودية.

استقرت الأمور بأسرة إبراهيم في أرض كنعان مرة ثانية، وزادت أعداد ماشيته وأغنامه، وتضاعف عدد المؤمنين بدينه.

ولأن الأرض لم تعد تتسع لرعي أغنام وماشية إبراهيم ولوط، لذلك بعث الله لوطًا نبيًّا إلى أرض سدوم وعمورة واستقر إبراهيم في أرض كنعان.

لكن أمرًا ما كان يقلق خاطر إبراهيم وسارة، فقد كبرا، وشاخت سنهما، دون أن يُعْقبا ولدًا، يرث مكانة أبيه، ويخلفه في نشر دعوته، وعز عليهما تحقيق الأمل الذي تصبو إليه نفساهما، وما تملك سارة إلا أن تكتم في نفسها مشاعر أمومتها!! تتصبر في محنتها، تلتقط دموعها من عينيها كلما ألم بها طائف الأمومة.

ومع ذلك، فقد بقيت سارة على إيمانها بربها، وثقتها في عطفه وكرمه عليها.

كانت سارة بشفافية إيمانها تشعر أنها ظلمت إبراهيم بعقرها، ولو كانت بيدها مفاتيح الآمال، لاقترحت على القدر أن يرزق إبراهيم ولدًا من غيرها، لذلك اقترحت سارة على إبراهيم أن يتزوج من هاجر، فقد وجدت في جاريتها حسن الخلق والوفاء، وهما تتبادلان الحب معًا، تشعر كل منهما نحو الأخرى بالاحترام والتقدير المتبادلين.

لاشك أن إبراهيم عارض سارة في رأيها هذا، كيف له أن يرتبط بزوجة أخرى غيرها، ولعله أمام إصرار سارة، وتصديقًا لرغبتها، نزل على رأيها، وتزوج هاجر.

---

(1) راجع قصة هاجر المصرية زوج إبراهيم الثانية في الفصل الرابع من هذا الكتاب ص41.

وشاء الله لهاجر أن تحمل، وتلد ولدًا أسماه أبوه إسماعيل، إنها مشيئة الله، شاءها لإبراهيم، لقدر قدره في سجلات الخلود.

ثم كانت مشيئة الله أن يأمر الله إبراهيم أن يأخذ ابنه إسماعيل وزوجه هاجر، ويذهب بهما بعيدًا إلى أرض مكة.. كان هذا لحكمة شاءها الله، وفعل إبراهيم ما أمره به ربه، ابتعد بهاجر وإسماعيل حيث تركهما في وادٍ غير ذي زرع عند بيته المحرم.

* * *

لنترك هاجر في موقعها ولنعدْ إلى سارة في أرض كنعان.

(5)

كان إبراهيم عليه السلام قد اعتاد ألا يتناول طعامه، إلا إذا شاركه بعض الضيوف، يطيب له الطعام مع آخرين.. عُرف بكرمه وجوده، فكانت خيمته ملاذًا للمحتاجين والضيوف الذين يأتون إليه، فيجدون عنده الكرم.

اعتاد إبراهيم إن لم يأته ضيوف، أن يخرج خارج خيمته، يبحث عن ضيف له، يشاركه طعامه.. كأنه يجد في هذه المشاركة متعة، لا يجدها في وحدته.

ذات يوم.. أقبل إلى إبراهيم ثلاثة ضيوف في أبهى زينتهم، تعلو وجوههم بسمة مشرقة.. تبدو عليهم مِسْحَة التقوى والإيمان.. أقبلوا إليه، فقالوا له:

ـ سلامًا.

فأجابهم إبراهيم بمثل تحيتهم، وأفسح لهم الطريق إلى خيمته، مرحبًا بهم، مبديًا لهم سعادته بمقدمهم.

أسرع إبراهيم إلى زوجه سارة، فأخبرها بمقدم ضيوف عليه، لتعد لهم طعامًا، يليق بمكانتهم، فهم من علية القوم، تبدو على وجوههم أمارات الإيمان والصلاح والتقوى.

استطاعت سارة بمساعدة خدمها أن تهيئ الطعام للضيوف، كان عجلاً سمينًا.. مشويًا، ومعه أصناف أخرى من الطعام، قدَّم إبراهيم الطعام إلى ضيوفه.. يدفعهم إلى أن يتناولوا منه هنيئًا.. مريئًا.

لكن شيئًا ما أدهش إبراهيم، ولعل بعض خدمه شاركوه هذه الدهشة.

إن الضيوف لم يأكلوا، لم تمتد يد أحدهم إلى الطعام، حتى ليذوقوه، ولعل أعينهم لم تنظر إلى هذا الطعام، وكأنهم ليسوا في حاجة إليه، ترى؟ ما أمرهم؟ ألم يعجبهم هذا الطعام، سألهم إبراهيم في رجاء ومودة:

ـ ألا تأكلون؟

لكن الضيوف كانوا صامتين، ينظر بعضهم إلى بعض وإلى إبراهيم، مما جعل إبراهيم يشك في أمرهم، وما يتبادلونه من نظرات، فأحس في نفسه خيفة!!.. أسئلة كثيرة تدور في ذهن إبراهيم..

لاحظ الضيوف ما يدور في ذهن إبراهيم من مخاوف، فابتسموا له، ليطمئنوه، وقالوا له:

ـ لا تخف ﴿لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: 53].

في دهشة وريبة، وإن بدت السعادة على وجه إبراهيم، وهو يقول:

ـ ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: 54].

قالوا:

ـ ﴿بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ [الحجر: 55].

كانت سارة على مقربة مما يدور من حديث بين إبراهيم وضيوفه، فسمعت ما قالوه، فغلبتها دهشتها على فرحتها، فصرخت، ولطمت على وجهها، وارتجف فؤادها بين أضلعها، وكأنها تنظر إلى الشعرات التي تملأ رأسها، وقالت:

ـ ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: 29].

ومضت اللحظات على سارة، وقد عظمت دهشتها مما سمعت، وقد غلبها البكاء، فقالت:

- ﴿يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: 72].

هنالك سمعت سارة الضيوف يهتفون بها:

- ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: 73].

واتجه الضيوف إلى سارة، وقالوا لها في ثقة:

- ﴿كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: 30].

أدرك إبراهيم عليه السلام أن هؤلاء الضيوف[1]، ليسوا بشرًا، لكنهم ملائكة، جاءوا بأمر ربهم، ليبشروا إبراهيم، ولاشك أنهم صادقون في بشراهم، فحمد الله فضله، وشكره أن حقق له أملاً كان بالأمس حلمًا خادعًا، حققه الله له، وأتم نعمته عليه، بعد أن كاد عمره يتوارى خلف سنوات طويلة.

* * *

ودَّع الملائكة إبراهيم وزوجه سارة، فقد جاءوا لكى يلحقوا بنبي الله لوط[2] الذي عصاه قومه لينزل الله عليهم العقاب جزاء سوء ما يفعلون.

(6)

بعد حين، أحست سارة بأنها حامل بعد أن اعتصرت السنون رحيق شبابها.. أصلحها الله زوجة وأمًّا، فسعدت بحملها، تنتظر يوم خروجه إلى الحياة، ثم وضعت سارة ابنها، فتذكرت يوم بشرها الملائكة ﴿بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: 71].

(1) كان هؤلاء الضيوف الثلاثة هم من الملائكة: جبريل وميكائيل وإسرافيل، قال بهذا كثير من الرواة، والله أعلم من كانوا. [المؤلف]

(2) انظر قصة ما حدث لقوم لوط في الفصل الخامس من هذا الكتاب ص57.

ومن أجل ذلك أسميا المولود إسحق، ترى من سيكون يعقوب[1] الذي يأتي بعد إسحق؟

ومضت الأيام بإبراهيم وسارة في أرض كنعان.. سعيدين برعاية ابنهما إسحق، وأصبح لإبراهيم ولدان: إسماعيل من هاجر وإسحق من سارة، فكان عليه أن يقضي أيامه بين مكة حيث كانت تعيش هاجر وإسماعيل، وأرض كنعان حيث سارة وإسحق.

حتى شاء الله لسارة أن تنتهي بها الحياة.. ماتت، ودفنها إبراهيم في مغارة المكفيلة[2] التي كان قد اشتراها من عفرون الحثي.

ولتبقى ذكرى سارة رمزًا للتضحية في العطاء والوفاء لزوجها، ودليلاً من دلائل فضل الله ونعمه.

فسلام على سارة، وسلام على زوجها إبراهيم.

(1) يعقوب: هو ابن إسحق. أي أنه حفيد إبراهيم، وهو أبو الأسباط الاثنى عشر ومنهم يوسف عليه السلام.
(2) تقع هذه المغارة بمدينة حبرون (إحدى مدن فلسطين حاليًا، والتي تبعد عن جنوب بيت المقدس بحوالي ٣٠كم) وفيها الحرم الإبراهيمي، حيث دفن إبراهيم وسارة وإسحق.

الفصل الرابع

هاجَر المصريَّة

زوج إبراهيم وأم إسماعيل عليهما السلام

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾

[إبراهيم: 37].

(1)

مضت الشمس إلى مغربها.. تسحب خيوطها الذهبية اللاهثة، تجمعها من أعالي النخيل، وذوائب الأشجار.

كانت هاجر تقف في إحدى شرفات قصر أبيها، أحد أمراء منف[1]، ترقب موعد غروب الشمس الرائع.. تتابع القوارب الصغيرة بأشرعتها البيضاء، وهي تتهادى فوق صفحة مياه نهر النيل العظيم، تنظر إلى جماعات الطيور التي تحلق في صفوف، متجهة إلى أعشاشها القائمة فوق أغصان الأشجار، فتسعد بلقاء فراخها، وتسعد فراخها بها.. صورة من صور جمال الطبيعة التي كانت تطالعها هاجر في قصر أبيها بمنف، تلك المدينة المصرية العريقة التي كانت عاصمة لكثير من ملوك مصر على مدى تاريخ طويل.

فما هي إلا ساعة أو بعضها، حتى غاب قرص الشمس، ودبَّ الشفق الأحمر في الأفق، يعلن عن مقدم الليل.

في هذا القصر بمنف، كانت تعيش هاجر وأبوها وإخوتها وأخواتها، وقد نشر السلام عليهم أجنحته البيضاء.. تشرق حياتهم بالسعادة والأمن، سعداء بما منحتهم آلهتهم رع وآمون وحابي[2] من خير ونعيم.. مجلوة أمامهم الحياة بالسرور والسعادة.

لكن الأمور قد تغيرت، حينما حلَّ بمصر جماعة من الأجانب، استولوا على شرقها، وراحوا يغتالون مساحات من أرضها، ينتزعونها من أصحابها

---

(1) منف (منفيس): كانت عاصمة مصر في الدولة القديمة، منذ وحَّد مينا مصر سنة 3000 ق.م، كانت تقع غرب نهر النيل جنوب القاهرة (حاليًا) وقبل تفرع نهر النيل.

(2) الإله حابي: هو الإله الذي كان يسمى به نهر النيل قديمًا.

المصريين، إنهم الهكسوس[1] الذين استولوا على مصر في فترة من فترات ضعفها، وما برحوا كل يوم يحاولون أن يغتصبوا أجزاء منها، وإن لم يستطيعوا السيطرة على مصر كلها.

في تلك الليلة التي لم تنسها هاجر، كان الظلام يغطي سماء منف، حينما هاجم الأعداء قصر أبيها، فلم تسعفه شيخوخته على مواجهتهم، فقضى نحبه.. بينما قتل الأعداء كثيرًا من قومها، واستولوا على القصر، وإذا كان الموت قد أخطأها، فقد أخذها رجال الملك أسيرة.. انتزعوها من مجامع عزها وأنسها ونعمائها، ليسوقوها إلى قصر الملك مكبّلة، لتكون واحدة من جواريه!!

هكذا شاءت الأقدار لهاجر، أن تقع في إسار الرق، وهي الأميرة ابنة الأمير، تصارع محنة إسارها، وابتعادها عن أهلها، وتقاسي لوعة فراق ديارها.

ترى؟ هل كانت هاجر، وهي تعاني الأسر والعبودية، تدرك أن الله كتب لها في صفحات التاريخ صفحة مشرقة سيبقى ذكرها على مر الأيام؟!

(2)

في تلك الفترة من التاريخ.. جاء إلى مصر إبراهيم عليه السلام بصحبة زوجه سارة وبعض رجاله، جاءوا إليها بعد أن أصاب الجدب والجوع أرض كنعان، كأنما شاء الله أن تتوافق الأحداث مع بعضها لمشيئة يعلمها.

ثم كان ما كان من أمر ذلك الملك الكافر الظالم الذي أراد أن يغتصب سارة، بعد أن أخبره رجاله بجمالها، ووضاءة وجهها، وأمرهم أن يأتوا بها إلى قصره، ليكون له معها شأن، وما كان هذا الشأن إلا شرًّا أراده بها، وقد أوردنا قصة سارة في الفصل السابق.

(1) الهكسوس: هم الحكام الأجانب الذين غزوا مصر.. جاءوا إليها من الشرق، وكانوا قومًا همجًا رعاة اتخذوا عاصمة في أفارس (أواريس) مكانها الآن صان الحجر في محافظة الشرقية، استمروا بمصر حتى طردهم أحمس أحد ملوك الدولة الحديثة.

كانت هاجر جارية من جواري قصر الملك كما أسلفنا، تعاني قسوة الأسر، ولظى فراق الأحبة والصحاب، تدعو آلهتها أن يعيدوها إلى قومها في منف، تسامر ذكريات أيام عزها، وتستنطق الأحداث التي عاشتها عزيزة مكرمة.

ثم كان اللقاء بين هاجر وسارة.. لقاء رتبته الأحداث بلا سابق موعد، ولا رغبة من إحداهن، لكن الله هو الذي شاء لهما هذا اللقاء لمشيئة شاءها، وكتبها في صفحات الخلود.

أحست سارة حينما التقت بهاجر براحة في نفسها، أعادت إليها بعض هدوئها، وأزالت عنها بعض مخاوفها، مما ينتظرها على يد هذا الملك الظالم.. تحاول أن تطمئنها.

وسمعت هاجر نداء سارة، وهي تدعو إلهها.. تناديه أن يصرف عنها السوء، وأن ينقذها من شره. ودُفعتْ سارة، لتدخل إلى حجرة الملك، وكانت هاجر مشفقة عليها، ولعلها شاركتها دعواتها، وانتهت الليلة دون أن ينال الملك مأربه، لتعود سارة مشرقة.. سعيدة بفضل الله عليها.

ترى؟!.. أي إله هذا الذي تعبده سارة، وكانت تدعوه، فاستجاب لدعوتها، وحفظ لها ولزوجها طهارتهما؟ سؤال كان يتردد في ذهن هاجر.

كانت هاجر سعيدة بما حدثتها به سارة عن الله، رب إبراهيم، الله الذي خلق الإنسان والوجود، مما جعل هاجر تقارن بين إله سارة الذي حفظها، وبين آلهتها رع وآمون... وغيرهما، تلك الآلهة التي كَثُرت، واختلف الناس في عبادتها في كثير من أنحاء مصر.. كثيرة هي تلك الآلهة، ومع ذلك، لم تستطع هذه الآلهة أن تحمي أصحابها من شر أعدائهم!!

لاشك أن هاجر في ذلك اليوم آمنت بإله سارة، إله إبراهيم، وراحت تدعوه أن يعيدها إلى قومها، ويصرف عنها السوء، وأن ينقذها من أسرها ورقها، وما كانت تدري أن الله سيستجيب لها، كفل لها خيرًا ينالها.

وشاء الله للملك أن يشعر بمكانة سارة، وأن يهدي قلبه إلى الحقيقة، فأهدى إلى سارة هاجر؛ لتخدمها، وليكون بين الاثنتين رباط، لم يستطع الزمن أن يحل وكاءه، لقد كان فضل الله على هاجر عظيمًا.

فما انتهت أيام إبراهيم في مصر، حتى عادت قافلته إلى أرض كنعان، تصحب سارة جاريتها هاجر لتؤنسها، وتشاركها عبادتها، عبادة الله رب إبراهيم.

(3)

استقر إبراهيم.. تشاركه زوجه سارة وجاريتها هاجر في أرض كنعان، حيث حفر إبراهيم بئر ماء، وراح يرعى أغنامه.. وكان يجوب أنحاء الشام ما بين دمشق[1] ويبوس[2].. يدعو الناس إلى عبادة الله وحده، ويبعدهم عن عبادة الأصنام.

ولأن سارة كانت عقيمًا.. لا تلد.. طال بها الحنين إلى الولد، وشاخت، ولم يحقق الله أملها، فاقترحت على زوجها إبراهيم أن يتزوج جاريتها هاجر المصرية[3]، لعل الله يرزقه منها بولد، يملأ عليه حياته.

تزوج إبراهيم هاجر، فأنجبت له ابنه إسماعيل[4] وسعد إبراهيم وهاجر بمولد إسماعيل.. وشاركتهما سارة سعادتهما، فقد استطاع إبراهيم أن يحقق أمله بالولد، حتى لو كان من غير سارة، هذه مشيئة الله.

(1) دمشق: كانت تعرف قديمًا باسم ديمشالي، وهي من أقدم مدن الشام، يرجع تاريخها إلى أكثر من 5000 سنة، كانت عاصمة الدولة الأموية، هي الآن عاصمة الجمهورية العربية السورية.

(2) يبوس: كانت عاصمة اليبوسيين، يرجع تاريخها إلى أكثر من 5000 سنة، عرفت بعد ذلك باسم أورشليم.. اتخذها نبي الله سليمان عاصمة له، ثم عرفت باسم إيليا في عهد الرومان، تعرف الآن باسم القدس، أو بيت المقدس، عاصمة الدولة الفلسطينية. [المنجد ص46]

(3) لم يذكر القرآن الكريم قصة هاجر المصرية وزواجها من إبراهيم عليه السلام، ولكن أحد الأحاديث النبويةتعرَّض لهذا، قال رسول الله ﷺ: «إذا افتتحتم مصر، فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا».

وقد تعرضت التوراة (العهد القديم) لهذه القصة في الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين (وأما ساراي امرأة إبراهيم، فلم تلد له، وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر، فقالت ساراي لإبراهيم: هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة، أدخل على جاريتي لعلي أرزق منها بنين. فسمع إبراهيم لقول ساراي، فأخذت ساراى هاجر المصرية جاريتها وأعطتها لإبرام زوجة له، فدخل على هاجر، فحبلت وولدت هاجر لإبراهيم ابنًا أسماه إسماعيل). [الفقرات 1 ـ 16]

(4) ذكر اسم إسماعيل في القرآن الكريم 12 مرة أكثرها في سورة البقرة (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص23) كما ذكر في العهد القديم عدة مرات.

كان إسماعيل ما يزال طفلاً حينما أخذه أبوه[1] وأخذ معه أمه هاجر، وغادروا أرض كنعان إلى ديار بعيدة جدًا، كانت تعرف بأرض فاران (مكة)، حيث الرمال والحصباء والبيداء الواسعة!!

وهناك.. ترك إبراهيم زوجه هاجر وابنها إسماعيل، فما كاد يهم بالعودة، حتى قالت له هاجر:

ـ يا إبراهيم.. أتتركنا هنا وحدنا في هذه الأرض الموحشة، نقاسي الوحدة، ومشقة الحياة؟!

فقال إبراهيم، ويعلم الله ما في قلبه:

ـ الرب معكما يا هاجر.. يحرسكما، ويحفظ عليكما حياتكما.

قالت هاجر في استعطاف:

ـ آلله أمرك بهذا؟!

قال إبراهيم لهاجر:

ـ يا هاجر.. إنها مشيئة الله شاءها لحكمة يعلمها، وعليَّ أن أحقق لله مشيئته.

قالت هاجر:

ـ فالله لن يضيعنا.

وما يملك إبراهيم وهو يودع زوجه وابنه إلا أن ينادي ربه:

ـ ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: 37].

---

(1) ذكر بعض الرواة أن سارة بعد أن أنجبت ابنها إسحق.. رأت إبراهيم يداعب إسماعيل، فأصابتها الغيرة، وهي التي قالت لإبراهيم:
ـ لن أساكن الجارية وابنها.
ولذلك أخذ إبراهيم هاجر وابنها إسماعيل وذهب بهما إلى أرض مكة.
ونحن ننزه بيت إبراهيم رسول الله عن أن تقوم فيه هذه الغيرة بهذه الصورة المفتعلة، ونحب هنا أن نذكر أن سارة أنجبت إسحق بعد مولد إسماعيل بحوالي 13 سنة، فلم تجمعهما طفولة، لأن هاجر ذهبت هي وابنها إسماعيل إلى مكة، وكان مازال طفلاً، بل لعله كان رضيعًا. [المؤلف]

عاد إبراهيم إلى أرض كنعان، حيث زوجه سارة، بعد أن خلَّفَ هاجر وطفلها إسماعيل في مكة، حيث الأرض جدبة قاحلة.. خالية من الحياة والحركة، وترك معهما جرابًا فيه طعام، وسقاء فيه ماء، معتمدًا على أن الله لن يضيعهما، وسيهيئ لهما من السبل ما يستطيعان به الإقامة في هذا المكان. إنها مشيئة الله.

(4)

مضى يوم، أو بضعة أيام.. الله أعلم.. حين أحست هاجر أن ابنها إسماعيل قد أصابه الظمأ، فهرعت إلى سقاء الماء، لكن الحسرة ملأت نفسها، حين وجدته فارغًا.. لا يبض بقطرة ماء واحدة!!

لحظات قاسية عاشتها هاجر، وهي ترى الذبول يغطي وجه إسماعيل[1] من شدة الظمأ.. يضرب الهواء بقدميه، يعلن عن ظمئه الذي يكاد يقتله، وهاجر عاجزة عن أن تفعل من أجله شيئًا.. ترنو إلى الفضاء الواسع حولها فلا أنهار على مقربة منها، ولا بئر ماء تستطيع أن تعيد ملء سقائها منها، وما ترى إلا بيداء واسعة.. ترامت أطرافها.. تغطيها الرمال، وما عرف عن الرمال أنها تبض ماء!!

ليت هاجر تستطيع أن تصل إلى مصر، حيث تروي ظمأ ابنها من ماء نيلها العذب الفيَّاض، لكن المسافة بعيدة بينها وبين مصر.. هكذا كتبت عليها الأقدار أن تبتعد عن وطنها، وتعاني ما تعانيه في وحدتها!!

---

(1) رحلة إسماعيل وهاجر إلى مكة، لم ترد تفاصيلها كما نعلمها في آيات القرآن الكريم، وكل ما جاء به، كان إشارة إليها في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم. 37].

أما التوراة، فقد تحدثت عن هذه الرحلة في سفر التكوين، وإن اختلفت في بعض تفاصيلها، فقد جاء في الإصحاح 21:

(فبكر إبراهيم صباحًا وأخذ خبزًا وقربة ماء، وأعطاها لهاجر، فمضت وتاهت في برية سبع (برية سبع تقع جنوب فلسطين) ولما فرغ الماء من القربة، طرحت الولد تحت إحدى الأشجار، فسمع الله صوت الغلام، ونادى ملاك الله هاجر، وقال لها: مالك يا هاجر، لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو....

وفتح الله عينيها، فأبصرت بئر ماء، ملأت القربة ماء، وسقت الغلام، وكان الله مع الغلام، فكبر، سكن برية فاران) الإصحاح 21 سفر التكوين فقرات 14 ـ 22، ومعروف أن فاران المقصود بها مكة.

تركت هاجر عريشها، تنظر في السماء، لعل سحابة تمطرها ببعض قطرات ماء، تطفئ بها ظمأ وحيدها.

صعدت هاجر إلى جبل الصفا، تنظر في الأفق الواسع، لعلها ترى قافلة تجارة تمر بهذا المكان، تستطيع أن تأخذ من زاد رجالها بعض ماء، تبقي به على حياة ابنها.. فبينما هي كذلك، أبصرت عند جبل المروة كأن لجة ماء، فأسرعت إليها.. تسير حينًا، وتهرول حينًا.. حتى إذا وصلت هناك.. لم تجد ماء، وأن ما كانت تراه ليس إلا سرابًا، يحسبه الظمآن ماء!!

سبعة أشواط قطعتها هاجر بين الصفا والمروة..

ترى؟!.. هل كانت هاجر في سعيها في ذلك اليوم تعلم أن سعيها هذا سيكون منسكًا من مناسك الحج والعمرة التي كتبها الله على المسلمين الذين سيدينون بعد ذلك بدين حفيدها محمد؟!

بعد هذه المشقة التي عاشتها هاجر، عادت إلى ابنها إسماعيل، تنتظر قضاء الله فيه، فلم يعد لها أمل أن تجد له شربة ماء، تطفئ بها ظمأه.. عادت إليه، ويعلم الله ما أصاب قلبها المكلوم، وحسرتها على ما آل إليه أمرها وابنها، فالعود الأخضر لن يقدر له النَّمَاء، وكان أملها أن يزدهر ويثمر.

عادت هاجر إلى ابنها إسماعيل، وكأنها تأسف له على عدم قدرتها على ري ظمئه.. عادت إليه بقلب مكلوم، تلهث أنفاسها، وتفيض نفسها حزنًا وألمًا على وحيدها.

لكن الدهشة ملكت هاجر عندما اقتربت من ابنها، فإذا بئر ماء، تفجَّرَت عند قدميه الواهنتين، فأسرعت تغترف من الماء بيديها، وتروي ابنها، ولسانها يلهج بالشكر لله، ثم أخذت تزم الرمال حول البئر، حتى لا يتسرب ماؤها إلى الرمال، وهي تهتف:

- زمي.. زمي[1]..

(1) في حديث لرسول الله ﷺ قال: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم، لكانت عينا معينا».
[رواه ابن عمر]

فكانت بئر زمزم[1] التي ما تزال موجودة حتى الآن.

كم سعدت هاجر بفضل الله عليها، لقد كانت واثقة من الله، حين قالت لإبراهيم: فالله لن يضيعنا.

ومضت الأيام بهاجر بجوار ابنها إسماعيل، حتى مر بها بعض رجال من قبيلة جرهم، فاستأذنوها أن يسكنوا معها، وأن يأخذوا من ماء زمزم التي غدا ما حولها وكأنه واحة صغيرة، فأذنت لهم، ليكونوا أنسًا لها في وحدتها، وليكون هذا بداية لإعمار مكة.

(5)

وتعاقبت الأيام، وسعدت هاجر بحياتها، وكبر إسماعيل.. صار غلامًا يافعًا، واعتاد إبراهيم أن يزور زوجه هاجر وابنه إسماعيل من حين لآخر، يشاركهما سعادتهما بفضل الله عليهما، وما هيأه لهما من استقرار في تلك المنطقة النائية القاحلة.

جاء إبراهيم ذات يوم كعادته إلى مكة، ونام في ناحية ما على مقربة من خيمة هاجر، وبئر زمزم، وراح يستعيد أحداثًا كثيرة مرَّت عليه.

ذكريات كثيرة وفدت إلى ذهن إبراهيم.. ذكريات ما حدث له في أرض أور، مهد مولده وشبابه، وهجرته إلى أرض كنعان، ثم إلى أرض مصر.

فبينما إبراهيم ماض في ذكرياته.. غفت عيناه لحظة لا يعلم مداها إلا الله، فسمع هاتفًا يناديه:

(1) زمزم: بئر بالمسجد الحرام: ماؤها قلوي.. تكثر به الصودا وبعض الأحماض، مما يعطى له مذاقًا خاصًا. أنبعها الله عند قدمي إسماعيل، ليكون ماؤها ريًا لرواد مكة وزوارها، حتى غدا ما حولها وكأنه واحة.. بقيت هكذا، حتى استولى الجراهمة على حكم مكة، وأساءوا إلى أهلها، فلما أحس الجراهمة بنهاية ملكهم، عمد زعيمهم الحارث الثالث إلى زمزم ليلاً، فدفن فيها غزالتين من ذهب، وبعض السيوف والدروع، وأهال عليها الرمال حتى طمرت، وجفَّ ماؤها، فلما كان عهد عبد المطلب (جد رسول الله ﷺ) وكان قائمًا على سقاية مكة ورفادتها، سمع هاتفا يهتف به، أن يحفر زمزم، وحدد له الهاتف مكانها، عند نقرة الغراب الأسود، استطاع عبد المطلب بمساعدة ابنه الحارث أن يعيد حفر زمزم، لتكون ريًا للحجاج حتى الآن.
عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ماء زمزم لما شرب له) رواه الحاكم في المستدرك.

ـ يا إبراهيم.. الله يأمرك أن تذبح ولدك، قربانًا له.

هبَّت على إبراهيم نسمة رطبة، أيقظته من غفوته، وفتح عينيه، وهو ينظر حوله، وصورة الهاتف الذي أمره بذبح ابنه لا تفارقه.

لم يكن الصوت غريبًا على إبراهيم، إنه نفس الصوت الذي هتف به ذات يوم، حين كان مُوثقًا، ليلقي به في النار، سمعه، وهو يقول: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾.. لاشك أن الهاتف صادق، وأن عليه أن يحقق ما يريده منه.

يا لقسوة الموقف على إبراهيم.. كيف تطاوعه نفسه أن يذبح ولده الوحيد إسماعيل الذي جاءه بعد أن شاخ، وابيض شعره؟ كيف تطاوعه أبوَّته أن يفعل ما يراد منه؟! ثم ماذا سيكون أمره مع زوجه هاجر؟ لاشك أن حزنها على ولدها سيقتلها. مشاعر كثيرة ملأت ذهن إبراهيم، ولكنه لا يملك إلا أن ينفذ مشيئة الله له!!

لم يخبر إبراهيم زوجه هاجر بما انتواه، كان عليه أن يخبر ابنه إسماعيل، فقال له:

ـ ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ [الصافات: 102].

في ثقة واطمئنان الابن وطاعته لأبيه، قال إسماعيل:

ـ ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: 102].

في عماية الصبح، وقبل أن يسفر النهار.. ودَّع إسماعيل أمه.. خيل إليها أنه ذاهب ليحتطب مع أبيه.

مضى إبراهيم وفي يده مُدْية، يصحبه ولده إسماعيل يحمل حبلاً.. كان إبراهيم يتعثر في خطوات شيخوخته، شيخ أثقلت السنون كاهله، تضطرب في نفسه أفكار شتى، لما هو مقدم عليه، وماذا يقول بعد ذلك لامرأته هاجر، بعد أن يذبح ابنها، فلذة كبدها؟!

فبينما هما ماضيان.. قابلهما في الطريق شيخ قد ائتزر بعباءة رجل عربي، قال لإبراهيم:

ـ أيها الشيخ.. كيف تطاوعك نفسك أن تذبح ولدك، قرة عين لك ولأمه؟! عد إلى صوابك، وارجع عما أردت.

أدرك إبراهيم أن هذا الشيخ هو إبليس اللعين، قد تزيى بزيه العربي، يوسوس له، ليصرفه عن طاعة ربه، وتنفيذ مشيئته.

هنالك.. تناول إبراهيم بضع حصوات، وألقى بها على إبليس، وقال له:

ـ ابتعد عني يا عدو الله.

ثلاث مرات، حاول إبليس بكلماته المعسولة أن يصرف إبراهيم عن أمر ربه، وفي كل مرة يلقي عليه إبراهيم بضع حصوات، ويطرده من طريقه.

ترى؟!.. هل كان إبراهيم يعلم أن رجم إبليس ببضع حصوات سيكون منسكًا من مناسك الحج التي يقوم بها المؤمنون بدين حفيده محمد ﷺ؟!

* * *

مهما يكن من شيء، فقد وصل الغلام وأبوه إلى أعلى الجبل، لحظات سريعة عاشها الاثنان، حين أوثق إبراهيم ابنه إسماعيل بالحبل، وألقاه على ظهره ليذبحه[1].

لكن السكين لا تذبح.. انتزع الله عنها خاصيتها، كما انتزع عن النار خاصية الحرق، يوم أُلقي فيها إبراهيم.

عدة محاولات، حاول إبراهيم أن يذبح ولده إسماعيل، ولكن السكين لا تذبح.

في شجاعة وطاعة، قال إسماعيل لأبيه:

ـ يا أبت.. اشحذ شفرتك، وأسرع بالسكين على حلقي، بعد أن تكبني على وجهي، حتى لا ينضح الدم على قميصي، فتحزن، فإن أتيتَ أمي، فأقرئها مني السلام.

---

(1) لم يحدد القرآن الكريم اسم الذبيح هل هو إسماعيل أم إسحاق، مما جعل اليهود ينسبون قصة الفداء إلى إسحاق، وسجلوها في التوراة في الإصحاح ٢٢ الفقرة ٢ (فقال الله يا إبراهيم خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أرض الموريا...) والمقصود بالموريا بيت المقدس، حتى تثبت التوراة أن الذبيح إسحاق في فلسطين وليس إسماعيل في مكة!!

وهذا افتراء على الحقيقة لعدة أسباب هي:

1 ـ أن إسحاق لم يكن الابن الوحيد لإبراهيم، وإنما كان قبله إسماعيل، وكان يكبره بحوالي 13 سنة.

2 ـ أن قصة الفداء وقعت قبل مولد إسحاق، وهذا يعني أن إسماعيل هو وحيد إبراهيم، وهو بطل قصة الفداء.

3 ـ أن الجبل الذي وقعت عليه قصة الفداء هو جبل عرفات بمكة، وليس جبل الموريا بأرض كنعان بفلسطين.

فجأة.. سمع إبراهيم صوتًا يناديه:

ـ ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: 104، 105]

أصابت الحيرة.. إبراهيم.. ماذا يفعل؟ وراح يتلفت حوله، يبحث عن مصدر الصوت.. إنه نفس الصوت الذي هتف به أن يذبح ابنه، فإذا كبش يهبط عليه من أعلى الجبل، وإذا الصوت عاد يناديه:

ـ ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: 107].

أدرك إبراهيم أن هذا الكبش أرسله الله إليه، ليكون فداءً لابنه إسماعيل، ففك وثاقه، وذبح الكبش، واصطحب ابنه إسماعيل عائدين إلى هاجر، وكانت ما تزال في انتظارهما، وقد لعبت بها الظنون والهواجس.

لا شك أن هاجر سعدت بما حكاه لها إبراهيم: عن رؤياه، وما وقع له في الطريق مع إبليس اللعين، ومحاولته ذبح إسماعيل، وفداء الله لابنه بكبش عظيم ترى؟!.. هل كانت هاجر وإبراهيم يعلمان أن هذا الفداء، سيكون واحدًا من مناسك الحج، وسيكون سنة يقوم بها أتباع دين محمد حفيد إبراهيم؟

(6)

عادت الحياة تمضي بهاجر وابنها إسماعيل في مكة، كما شاءها الله، يزورها إبراهيم من حين لآخر، ليطمئن على شئون حياتهما.. يسعده اتساع الحياة في مكة، وكثرة ما استجد بها من خيام.

ثم كان ذات يوم..

جاء إبراهيم إلى مكة للزيارة، فسعد حين رأى إسماعيل يمتطي صهوة فرسه، لقد تعلم إسماعيل ركوب الخيل ومهر في الفروسية.

استراح إبراهيم قليلاً، ثم اتجه إلى إسماعيل في سعادة الأب وعطفه، واحترامه لابنه، وقال له:

ـ يا إسماعيل.. أمرني ربي أن أبني له بيتًا.. هنا.

فقال إسماعيل في سعادة:

ـ فأطع ربك فيما أمرك به.

كان الله سبحانه وتعالى قد حدد لإبراهيم مكان البيت، وأمره أن يرفع قواعده[1]، فأشار إبراهيم إلى تلك الربوة الحمراء التي كانت على غير بعيد من بئر زمزم، وقال لإسماعيل:

ـ هنا.. فوق هذه الربوة، على أن تعينني على ما أفعل.

قال إسماعيل، وقد غمرته السعادة:

ـ ستجدني إن شاء الله عونًا لك.

اشترك إسماعيل مع بعض رجال كانوا يسكنون مكة من بني جرهم، وجمعوا كثيرًا من الأحجار، جمعوها من الجبال المحيطة بمكة مثل جبل حراء، وجبل أبي قبيس[2] وجبل خندمة وجبل قينقعان وجبل هندي.

وبدأ إبراهيم يرفع قواعد البيت، يشاركه إسماعيل والرجال.

كانت هاجر سعيدة بما يقيمه زوجها وابنها.. تقوم على رعايتهما وخدمتهما، تهيئ لهما الطعام، وتغترف من ماء زمزم ما يحتاجونه من شراب، سعداء، وهم يهتفون من أعماق قلوبهم، وهاجر تردد معهم:

ـ ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 127].

ذكريات كثيرة، وأحداث طويلة، كانت هاجر تعيشها.. تتوارد إلى ذهنها، وهي تتابع زوجها وابنها والرجال وهم يرفعون بناء البيت، وما كانت تدري أن هذا البناء سيكون له في التاريخ صفحات تمتد حتى نهاية الحياة.

(1) اختلف العلماء والرواة فيمن أقام قواعد البيت التي رفعها إبراهيم وابنه إسماعيل.. قال بعضهم: إن الملائكة هم الذين وضعوا هذه القواعد، وقال آخرون: إن آدم عليه السلام هو الذي وضع قواعد البيت، وقيل: إن الذي وضع قواعد البيت هو شيث أحد أبناء آدم.

(2) جبال أبي قبيس وحراء وخندمة تقع شرق مكة، أما جبال هندي وقينقعان والجبل الأحمر، فتقع غرب مكة وشمالها الغربي.

حتى إذا ارتفع البناء[1] إلى مسافة ما.. وضع إبراهيم الحجر الأسود الذي جاء به جبريل، حتى اكتمل بناء الكعبة.

هنالك.. سمع إبراهيم من يناديه:

ـ ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: 27]

فاعتلى إبراهيم حجرًا، ونادى:

ـ أيها الناس.. كتب الله عليكم الحج، فحجوا.

ولدهشة إبراهيم، تجاوبت معه أصوات كثيرة، سمعها تنادي:

ـ لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.

وتواصلت أصوات التلبية، كأنها أصوات ملائكية، أو كأنها ترانيم السماء.

وهكذا تم بناء الكعبة[2] التي مازالت باقية حتى الآن، تحكي للناس قصة إبراهيم وزوجه هاجر وابنهما إسماعيل.

(7)

عادت الحياة تمضي بهاجر وابنها إسماعيل في مكة، بعد أن سافر إبراهيم إلى أرض كنعان.

كانت هاجر تسعد وهي تنظر إلى الكعبة بيت الله الحرام الذي بناه إبراهيم وإسماعيل.. كثيرًا ما كانت تجلس في المسجد حول الكعبة، تدارس للناس دين

(1) قصة بناء الكعبة، جاءت بالتفصيل في القرآن الكريم، لكن العهد القديم (التوراة) أغفل قصة هذا البناء، ولذلك ينكر اليهود هذه القصة.
وقد أعيد بناء الكعبة عدة مرات، كما حدث في عهد الخزاعيين، كما أعيد بناؤها قبل البعثة المحمدية بخمس سنوات، واشترك في البناء محمد ﷺ، وهو الذي أعاد الحجر الأسود إلى موضعه من الكعبة.. وفي فترات كثيرة، تم ترميم الكعبة. وما تزال الكعبة تجد اهتمامًا كبيرًا ورعاية فائقة من السعوديين، أما عن المسجد الحرام حول الكعبة، فقد تمت توسعته عدة مرات في عهد عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وبعض خلفاء الدولة العباسية، كما تم توسيعه عدة مرات في العهد السعودي.

(2) يقال إن إبراهيم عليه السلام هو الذي بنى المسجد الأقصى بعد بناء الكعبة بأربعين سنة.

زوجها إبراهيم، وتهديهم إلى عبادة الله الواحد، يشاركها ابنها إسماعيل الذي كان عليه أن ينشر دعوة التوحيد بين أهل مكة وزوارها.

وتكاثر الحَمَام حول الكعبة، يلتقط الحب، ويحلق فوق الكعبة وحولها بأجنحته البيضاء، يعلن للناس الأمن والاطمئنان والسلام في رحاب الكعبة.

جلست هاجر ذات يوم مستندة إلى ظهر الكعبة تتوارد إلى ذهنها ذكريات كثيرة، والابتسامة ترف على شفتيها، وبدا وجهها أكثر إشراقًا، لولا تلك الصفرة التي تعلوه، بسبب بعض مرض ألم بها، وَهَّن جسمها، وهي قائمة على ذكر الله ودعائه.

حتى إذا انتهت ما كان لها من نسمات، وتقطع ما كان بينها وبين الحياة.. أسبلت جفنيها، فمال إسماعيل إليها، والدموع تتساقط من عينيه، حتى أسلمت روحها إلى ربها، فبكاها كل من في مكة.

بكوا في هاجر أمًا طاهرة، لأنه سيبقى ذكرها على مدى التاريخ عبقًا بالذكريات، شعر كل من في مكة أن نجمًا أفل، لكنها سنة الحياة، ودفَن إسماعيل أمه هاجر في مكان قرب الكعبة[1].

وعلم إبراهيم بوفاة زوجه الحبيبة هاجر، فقدم إلى مكة، ليقدم واجب العزاء لابنها وأحفادها.

* * *

رحم الله هاجر.. الأميرة المصرية التي كانت نموذجًا للوفاء والتضحية.. رضيت أن تقيم في أرض قاحلة جرداء، صابرة على مشيئة الله، شاكرة. بعيدة عن وسوسة الشيطان، ولتبقى ذكراها مثالاً للزوجة الوفية الصابرة المطيعة لزوجها.

---

(1) يعرف هذا المكان الآن باسم حجر إسماعيل، ويقع بجوار الكعبة المشرفة.

الفصل الخامس

امرأة لوط عليه السلام

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾

[التحريم: 10].

(1)

كان الظلام ينشر أرديته الحالكة على أرض أور، إلا من شعاع نحيل لضوء القمر الذي يكاد يحتضر، وهو يتجه إلى مغربه، حين تحركت قافلة يتقدمها خليل الله إبراهيم عليه السلام في طريقهم نحو الشمال، هروبًا من رجال الملك النمرود.

كان مع إبراهيم زوجه سارة بنت هاران، وأبوه آزر (تارخ) وأخوه ناحور وزوجه ملكة بنت هاران، وابن أخيه لوط[1] الذي كان يجد من عمه إبراهيم كل تقدير، لحسن إيمانه، واستجابته لدعوته، وهجرته معه، وهو الذي قال:

- ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: 26].

مرت قافلة إبراهيم بأرض حاران، ثم اتجهوا منها إلى أرض الشام، واستقروا هناك لفترة، ثم واصلوا السير حتى وصلوا إلى أرض كنعان، يقومون على رعي أغنامهم ومواشيهم، ومعروف كما ذكرنا في قصة سارة وإبراهيم أنهما اتجها إلى مصر بعد ذلك، بسبب القحط الذي أصاب أرض كنعان.

افترق لوط عن عمه إبراهيم[2].. يقال: إن رعاة إبراهيم اختلفوا مع رعاة لوط على أماكن الرعي، فبعث الله لوطًا إلى قوم سدوم وعمورة وصوغر[3].

(1) هو لوط بن هاران (أخي إبراهيم) بن آزر (تارخ)، وقد ورد اسم لوط في القرآن الكريم 27 مرة، معظمها في سور: هود والعنكبوت والشعراء. (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص654)، كما ورد اسم لوط في العهد القديم أكثر من مرة في الإصحاحات 12، 13 من سفر التكوين.

(2) لم يحدد القرآن الكريم موعد نبوة لوط، واتجاهه إلى سدوم، هل كان ذلك قبل هجرة إبراهيم إلى مصر أم بعد العودة منها؟ ومعروف أن القرآن الكريم لم يتعرض في آياته لقصة هجرة إبراهيم إلى مصر، ولذلك إذا عدنا إلى العهد القديم نستطيع أن نؤكد أن افتراق لوط عن عمه إبراهيم كان بعد العودة من مصر، حيث كثرت أعداد أغنامهما ومواشيهما، ولم تعد أرض حبرون تتسع لهما، ولعل ما جاء في العهد القديم في الإصحاح 13 من سفر التكوين ما يشير إلى هذا، بل لعل هذا يعني أن لوطًا صحب عمه وزوجه سارة إلى مصر، وأن افتراقهما كان بعد عودتهما منها. [المؤلف]

(3) تقع هذه المدن جنوب البحر الميت، والذي كان يعرف باسم بحر لوط.. يحيط بهذه المنطقة: الأدميون في الجنوب والمؤابيون في الشرق والكنعانيون في الغرب. [أطلس تاريخ الأنبياء والرسل ص126]

ذهب لوط إلى الأرض التي بعثه الله إلى أهلها نبيًا، ليدعوهم إلى عبادة الله وحده، وترك ما كانوا يعيشون فيه من فساد وضلال.

(2)

كان قوم سدوم وعمورة وصوغر وثنيين، يعبدون الأصنام، اعتادوا أن يجلسوا على قارعة الطريق، ويؤذوا المارين بالسبٍّ والقول الفاحش، يلقون عليهم الحجارة، ويقيمون من أنفسهم قوة لجمع الأموال بالقوة والأذى، ويأتون في ناديهم المنكر!!

وأمعن قوم سدوم وعمورة في الفسق، فكانوا يأتون الفاحشة مع الرجال، ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[1] ويتركون ما أحل الله من نساء.

حاول لوط أن يعيدهم إلى الصواب، ويهديهم إلى الإيمان بالله الواحد، ولكنهم عصوه، بل حاولوا طرده من ديارهم.. حذرهم لوط مما ينتظرهم من عقاب لما يفعلون، فكذبوه، وقالوا له:

ـ ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: 29].

كانت امرأة لوط[2] امرأة عجوزًا، وهي واحدة من النساء اللاتي يشاركن الرجال جريمتهم.. الكفر والفسوق وعصيان الله، مع أنها امرأة نبي، نهاها الله أن تشجع رجال قومها على جريمتهم، وكان عليها أن تكون أول المطيعين له، ولكنها كفرت، واشتطت في كفرها.

اتفقت امرأة لوط مع رجال قومها أن تخبرهم عمن يأتون إلى زوجها من الرجال، كضيوف عليه، ليمارسوا معهم الفاحشة، كانت تشعل النار، ليتصاعد الدخان من دار لوط، فيعرف الرجال أن ضيوفًا عند لوط، فيهاجموا داره.

---

(1) معروف أن جريمة اللواط مثل الزنا؛ اعتمادًا على ما جاء في حديث لرسول الله ﷺ أنه قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به». [رواه أحمد 1/300]

(2) لم يذكر القرآن الكريم وكذلك العهد القديم اسم امرأة لوط، وذكر بعضهم أن اسمها والهة، قال بهذا ابن كثير في كتابه البداية والنهاية ج1 ص206، دون أن يحدد هؤلاء مصدرهم، لكن القرآن الكريم والعهد القديم أجمعا على أنها كانت امرأة كافرة، ونالها العقاب مثل غيرها.

مع أن امرأة لوط كانت تعلم أن زوجها رجل صالح.. يرفض سيرة قومها، ويحذرهم من العقاب، إلا أنها تمادت في الخطأ والخطيئة، وأصرت على سلوكها القبيح غير عابئة بغضب الله ولوط عليها، تشجع رجال قومها على فعل المعصية والفاحشة!!

كثيرًا ما حاول لوط نصح امرأته، ولكنها كانت مصرة على سوء سلوكها، وكثيرًا ما حذرها من عقاب الله لها، ولعله ذكَّرها بما حاق بامرأة نوح التي غضب عليها زوجها، فأغرقها الله، فكانت من المغرقين، وماتت كافرة، لتلقى جزاء كفرها يوم القيامة في عذاب النار، لكن الشيطان الذي سول لامرأة نوح سلوكها المعوج.. تسلط عليها، فاستمرت على سوء أخلاقها.

كان قوم سدوم وعمورة وصوغر مثالاً للخطيئة والشر والفسق.. استباحوا ما حرَّم الله، وحرَّموا ما أباحه الله، وتمادوا في غيهم وضلالهم، وما يملك لوط إلا أن يدعو ربه:

ـ ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: 30].

(3)

كان إبراهيم قد أنجب من زوجه هاجر ابنهما إسماعيل الذي تركه في مكة، وكانت سارة عاقرًا، لم تلد رغم شيخوختها، وطول مدة زواجها من إبراهيم.

ذات يوم..

أقبل إلى دار إبراهيم ثلاثة ضيوف، كانوا ملائكة من عند الله، بشروا إبراهيم وزوجه بغلام عليم[1]. بعد انتهاء مهمة الضيوف الملائكة عند إبراهيم، أخبروه بأنهم ذاهبون إلى أرض سدوم، للانتقام من أهلها لعصيانهم لوطًا نبى الله إليهم، وكفرهم وسوء ما يفعلون.

---

(1) راجع قصة سارة زوج إبراهيم في الفصل الثالث من هذا الكتاب ص27.

أشفق إبراهيم على لوط ومن آمنوا به، ودارت مناقشة بين الملائكة وإبراهيم.. حاول إبراهيم أن يقنعهم بأن بعضًا من القوم قد آمنوا بلوط واتبعوه، فكيف ينالهم العذاب؟ فطمأنت الملائكة إبراهيم على لوط ومن آمنوا به إلا امرأته، هذا الحوار هو الذي عبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى:

ـ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ(٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات: 31 ـ 33].

ـ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: 74 ـ 76].

ـ ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: 32].

ترى.. ماذا سيكون من أمر امرأة لوط؟!

(4)

وصل الملائكة الثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل إلى قرية سدوم.

كان الملائكة في صور غلمان، تشرق وجوههم بالجمال، ازّينوا بملابس محلاة، تنم عن جمالهم وحسن مظهرهم.

التقى الملائكة بإحدى ابنتي لوط[1]، وكانت تملأ وعاءها من النهر، وسألوها عن لوط.

كانت الفتاة تدرك ما سينال الغلمان الثلاثة من سوء على يد قومها، فقالت لهم:

(1) كان للوط ابنتان: الكبرى: اسمها ريثا، والصغرى اسمها ذغرتا. [البداية والنهاية ج1 ص204].

ـ مكانكم.. لا تدخلوا القرية، حتى آتيكم.

أسرعت الفتاة إلى أبيها لوط، وقالت له:

ـ يا أبتاه.. أرادك فتيان على باب المدينة، ما رأيت وجوه قوم قط أحسن منهم.. لا تأخذهم إلى قومك، فيفضحوك.

بعد حين.. وصل الملائكة (الغلمان الثلاثة) إلى دار لوط.

كان لوط جالسًا على باب داره، فما كاد يراهم مقبلين نحوه، حتى همَّ بلقائهم، ورحَّب بهم، واستقبلهم كأحسن ما يكون الاستقبال، لولا إحساسه بالخوف مما سينالهم من سوء فحش قومه، وأمر لوط خدمه أن يعدوا لهم فطيرًا.

هنالك.. أسرعت امرأة لوط، وأشعلت النيران.. وخرج الدخان من دار لوط، كإشارة من زوجته اعتادتها، تخبرهم أن ضيوفًا حلُّوا بدار لوط، ولم تكتف بهذا، بل خرجت وأخبرتهم بضيوف زوجها، وأن عليهم أن يستعدوا لمزاولة الخطيئة والفاحشة معهم!!

وسرعان ما اجتمع كثير من الرجال أمام دار لوط، يحاولون أن يلتقوا بهؤلاء الغلمان شديدى الجمال، لينالوا منهم مآربهم.

أحس لوط بالخطر يحدق بضيوفه، وأنه لا منجاة من شرٍّ بات محققًا، فحاول أن يصرف الرجال عما أرادوه، فقال لهم:

ـ ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلاَءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: 78].

لكن الشيطان كان قويًا على عقولهم وقلوبهم الغلف، فقالوا للوط:

ـ ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: 79].

عجز لوط عن مواجهة قومه لكثرتهم وقوتهم.. عجز عن أن يحمي ضيوفه من شرهم، ولأن لوطًا جاء إليهم غريبًا، ليس له عشيرة بينهم، ولا أبناء يقفون بجانبه، وينصرونه، فقد أحس بضعفه، فانزوى في ركن من أركان داره، وهو ينادي ربه:

ـ ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ [هود: 80].

كثيرًا ما حاول لوط أن يمنع قومه من الاقتراب من الضيوف.. وكان الله به رحيمًا.. أعمى أبصار الرجال عن ضيوفه.. عشيت أبصارهم، وعميت عيونهم، كما عميت بصائرهم، فلم يستطيعوا الوصول إلى الرجال، ولم يستطيعوا أن ينالوا منهم، ضرب الله على أعينهم:

﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: 37].

راح القوم يتخبطون.. يحيط بهم الظلام.. لم يبصروا الضيوف، لكنهم كانوا مصرين على المعصية، وأن ينالوا منهم.

هنالك نادى الله لوطًا، وقال له:

ـ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ [هود: 81].

كان هذا تأكيدًا من الله أن العذاب سيصيب الكافرين، وعاد الله ينادي لوطًا:

ـ ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: 81].

(5)

كان وقت السحر، حينما تحرك موكب المؤمنين، يتبعهم نبيهم لوط، وصحبته ابنتاه ريثا وذغرتا.

أما امرأة لوط، فيبدو أنها أحست بما سينال قومها من عقاب، فلحقت بموكب لوط، وكانت لا تزال على كفرها.. لعلها كانت تتمنى أن يخطئها العقاب، فتنجو.

ذكّر لوط قومه بأمر الله لهم، بألا يلتفت أحد منهم خلفه، مهما سمعوا ومهما أحسوا بما سيحدث للعاصين الفاجرين.

ما أشرق صباح اليوم، حتى أمر الله ملائكته، فرفع جبريل بجناحه أرض سدوم وعمورة وصوغر والقرى المحيطة بها إلى أعلى، ثم تركها تهبط، بعد أن انقلب أعلاها أسفلها، وأسفلها أعلاها، هبطت بمن عليها من الكفار الذين أحسوا بما أصابهم، فلم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا.

وقبل أن يفيق قوم لوط من دهشتهم، أرسل الله عليهم حجارة من جهنم.. تساقطت عليهم متتابعة.. كل واحد سقط عليه حجر، كان على كل حجر اسم صاحبه ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾

[هود: 82، 83]

وقع ما شاءه الله، فأحست امرأة لوط به، وسمعت ما حاق بالكفار من شر أحدق بهم، فأنساها الشيطان أمر الله، والتفتت وراءها، وهي تهتف وقد غمرها الحزن:

- واقوماه!! حسرتي عليكم أيها الرجال لما أصابكم.

وقبل أن تنتهي امرأة لوط من كلماتها.. سقطت عليها حصاة من سجيل، دكّتها إلى الأرض، لتنال ما نال غيرها من الكافرين العاصين، أليست واحدة منهم، حتى لو كانت امرأة لوط؟!

* * *

هكذا كانت نهاية امرأة لوط، نالت ما تستحقه جزاء كفرها برب لوط، وعصيانها، واتباعها لغواية الشيطان، ومعاونة قومها على فعل الفاحشة والسوء.. إنها كانت من القوم الكافرين، خانت زوجها النبي.. العبد الصالح، وما استطاع لوط أن يمنع عنها العقاب الذي تستحقه.

وحمى الله لوطًا ومن آمنوا به، ليكون ما حدث معجزة له، وعظة لمن شاء أن يتعظ[1].

(1) ذكرت التوراة هذه القصة بما يتفق مع ما جاء في القرآن الكريم، وإن اختلفت في عدد الملائكة، فقد جاء في العهد القديم سفر التكوين الإصحاح 19:

(فجاء الملكان إلى سدوم، وكان لوط جالسًا، فلما رآهما قام لاستقبالهما، وألح عليهما، فدخلا بيته، فصنع لهما فطيرًا وخبزًا، وأحاط بالبيت رجال سدوم، ونادوا لوطًا، وقالوا له:

- أين الرجلان اللذان دخلا الليلة، أخرجهما إلينا.

فأغلق لوط الباب، وقال:

- لا تفعلوا الشر بإخوتي. هو ذا ابنتاي لم تعرفا رجلاً أخرجهما إليكم، فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكما، وأما هذان الرجلان، فلا تفعلوا بهما شيئًا، لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفي.

فقالوا:

- ابعد إلى هناك.

وتقدموا ليكسروا الباب.... إلخ. راجع الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين فقرات 1 - 29.

الفصل السادس

زليخة.. امرأة عزيز مصر وصاحباتها ويوسف عليه السلام

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف: 21]

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: 23 ـ 25].

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: 30 ـ 33].

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: 50 ـ 51].

(1)

للأقدار مشيئتها، ونحن بني البشر لا نملك أن نغيِّر أقدارنا، أو أن نبدِّلها، فنحن أعجز من أن نقف في طريقها، لا نجرؤ على الاعتراض عليها، أو نوصد أمامها أبوابًا، ولا نملك إلا أن نخضع لمشيئتها، وأن نلوذ بربنا، نسأله أن تكون أقدارنا على خير ما نرجوه ونبتغيه، وأن يخفف عنا ما ثقل حمله علينا.

وما كانت قصة يوسف[1] عليه السلام إلا صورة من صور الأقدار التي أحكم رسمها، لتكون حياته كما شاءها الله ليوسف، عظة وعبرة لمن يتدبرها.

شاء إخوة يوسف أن يتخلصوا منه، ليخلو لهم وجه أبيهم، فألقوه في غيابات الجب[2].. لكن كان لله مشيئة أخرى أرادها ليوسف، وما كان الجب إلا بداية طريقه إلى الملك، ليصبح أمينًا على خزائن مصر.

أحكمت الأقدار نسج قصة يوسف، حين اتخذه سيده فوطيفار[3] - رئيس وزراء مصر في ذلك الوقت - غلامًا يخدمه هو وامرأته التي كان لها دور كبير في نسج فصول كثيرة من أحداث قصة يوسف.

---

(1) هو يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام، وقد ورد اسم يوسف في القرآن الكريم 27 مرة، وله قصة باسمه، هي إحدى قصص القرآن الكريم، قال عنه رسول الله ﷺ: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم». [رواه البخارى]
كما ذكر العهد القديم اسم يوسف أكثر من مرة في سفر التكوين في عدد كثير من إصحاحاته من الإصحاح 27 - 50.

(2) شاء الله ليوسف أن تنتهي حياة أمه راحيل، وهي تضع ابنها الأصغر بنيامين، فتفتحت عينا يوسف على الحياة وهو يتيم، فعوضه أبوه بحنانه وعطفه ورعايته مما جعل باقي إخوته يحقدون عليه، خصوصًا بعد الرؤيا التي رآها يوسف حين رأى ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: 4] حتى إنهم اتهموا أباهم يعقوب بالضلال ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: 8] ونتيجة لهذا، ألقوا أخاهم يوسف في الجب، وعادوا إلى أبيهم، يدَّعُون كذبًا أن الذئب قد أكله!!

(3) قيل اسمه فوطيفار (المنجد ص394) وذكر العهد القديم أن عزيز مصر كان اسمه فوطفار (الإصحاح التاسع والثلاثون من سفر التكوين فقرة(1)، وقيل: كان اسمه قطفير بن روجيب (تاريخ الطبري ج 1 ص 197).

كان إلقاء يوسف في الجب بداية الطريق إلى حياة جديدة، رسمتها له الأقدار، عكس ما شاءه له إخوته، فقد أخرجه من الجب رجال قافلة من المديانيين، حين تعلق يوسف بدلو أحدهم، وباعوه إلى أحد رجال إحدى القوافل الذين كانوا في طريقهم إلى مصر، باعوه بثمن بخس.. دراهم معدودة!!

وسيق يوسف إلى السوق في مصر.. عبدًا رقيقًا، فاشتراه عزيز مصر الذي قال لامرأته:

ـ ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف: 21].

ولتكون هذه بداية لمرحلة جديدة في حياة يوسف، انتقل فيها من مرحلة ظلام الجب، إلى مرحلة ظلام العبودية وقيود الأسر.

(2)

كانت امرأة العزيز[1] على غير ولد.. زوجها لاه عنها.. ربما لأنه كان عنّينًا.. لا يأتي النساء، أو لعل تبعات منصبه ألهته عن زوجته.. حرمتها من أن تنال حقوقها كأنثى، فلم تسعد بمشاعرها مثل غيرها من النساء، لم تطفئ جذوة أنوثتها.

ولأن يوسف كان عبدًا مطْيّعًا أمينًا، فقد حشدت زليخة اهتمامها برعايته، وهو يكبر أمام عينيها.. غلامًا، ثم فتى، فشابًّا.. ممتلئ الشباب والفتوة والحيوية، فضلاً عما وهبه الخالق من جمال الجسم ووضاءة الوجه.

كانت زليخة لا تزال تعيش في حرمانها العاطفي الذي تكتمه داخل نفسها.. وضح عليها وهي ترى يوسف الذي صنعته على يديها قد تفجر شبابه، وأحست زليخة أن أوراق ربيع عمرها تكاد تذوي، وتذروها رياح الخريف، ولم تحظ بالسعادة كزوجة، ولم تنل من الحياة حظها كأنثى، فكان عليها أن تستلب هذا الحق من غير زوجها، وما كان أمامها إلا يوسف.. الفتى الجميل الناضج الشباب، المملوء بالحيوية والنشاط.

---

(1) قيل: كان اسمها زليخة، وقيل: اسمها راعيل.

استغلت زليخة كل أسلحة أنوثتها، لتلهب بها مشاعر يوسف، ولتوقعه في حبائلها مع الشيطان الذي سوَّل لها الخطيئة، حاولت زليخة أن تثير انتباه يوسف إليها أكثر من مرة، ولكن يوسف كان يجد في نفسه الخادم وهي السيدة.

ربما فكرت زليخة أن تهبط إلى يوسف من عليائها كسيدة، أو ترفع يوسف إليها، تزيل حاجز السيادة والعبودية بينهما.. لا شك أنها حاولت أن تلفت نظره إليها، إلى جمالها، لعله يبادلها عواطفها ومشاعرها، لكن يوسف كان منصرفًا عنها.

ربما حاولت زليخة إغراء يوسف بالمعصية أكثر من مرة[1] ولكنه كان يغافلها ويهرب منها دون أن تتمكن منه، ولعله نصحها أكثر من مرة أن تصرف عنها شيطانها، وأنه لا يستطيع أن يخون سيده[2].

مع ذلك بقي الأمل يداعب زليخة أن تحقق ما تصبو إليه نفسها. أن تقنع يوسف بأن يعوضها عما افتقدته في زوجها، وما كان صبرها على الأمل إلا ليذكي ما في نفسها من مشاعر وأحاسيس.. تتضاعف يومًا بعد يوم.. تشقيها وحدتها نهارًا، أو سهدها ليلاً، وابتعاد زوجها عنها، لتشتعل في نفسها لهفة ظمأ أنوثتها.

(3)

حتى كانت ذات ليلة..

أدركت زليخة أن زوجها لن يعود من سفر ستطول مدته، فكان عليها أن تضع حدًّا لهذا الذي يصطرع في نفسها، وزين لها شيطانها الخطيئة، فأسرعت إلى مرآتها.. تهيئ نفسها بمفاتن جسدها وأنوثتها وزينتها وملابسها، وغلّقت

(1) يفهم مما جاء في الإصحاح 39 من سفر التكوين أن امرأة العزيز راودت يوسف عن نفسه عدة مرات، وكان يوسف يهرب منها، حتى كانت المرة التى رآها سيده.. لكن القرآن الكريم لم يذكر المراودة إلا مرة واحدة التي غلقت فيها الأبواب. الإصحاح 93 من سفر التكوين فقرة 7 ـ 10.

(2) راجع الفقرات 7 ـ 10 من الإصحاح 39 من سفر التكوين.

الأبواب، ثم دعت إليها عبدها يوسف، فما كاد يقدم إليها حتى أحست باضطراب في مشاعرها، وقامت إليه تحاول أن تلهب فيه عواطفه كشاب، وغريزته كرجل، وقالت له في كلمات صاغتها أنوثتها في تودد، تستدعيه إليها:

ـ هيت لك!!

فوجئ يوسف بزليخة، وقد بدت في أحسن زينتها وجمالها وأبهى حللها، تدعوه إلى نفسها!!.. تهتف به أن يشاركها نزوة الخطيئة.

كان يوسف شابًا، يحمل في قلبه آمالاً وأحلامًا كثيرة، ولكنه لا يستطيع أن يعصي ربه، ويخون سيده، فابتعد عن سيدته، أو لعله أبعدها عنه.. لكنها كانت مصرّة في تلك الليلة أن تنال مأربها، وتطفئ الجذوة التي اشتعلت بداخلها، ولم يستطع يوسف أن يهرب منها هذه المرة، فقد غلّقت الأبواب، وأحكمت متاريسها، وحشدت له كل ما يحقق لها ما تصبو إليه نفسها. كان يوسف قد اعتاد أن يطيع سيدته، فهو عبد لها.. لكنه في هذه المرة رفض طاعتها، وابتعد عنها.

أحس يوسف بأن سيدته تدفعه إلى الخطيئة، وهو ابن نبي، وحفيد نبي، وبدت زليخة وهي تعرض نفسها على يوسف، وقد تأججت أنوثتها، وهي تهتف به:

ـ هلمّ إليّ يوسف، فما أحسن شعرك!!

التفت يوسف إلى سيدته، وقال لها:

ـ هو أول ما ينتثر من جسدي!!

أومأت زليخة إلى يوسف إيماءة صنعتها أنوثتها، وقالت له:

ـ فما أحسن عينيك!!

قال يوسف، يحاول أن يصرفها عما بداخلها:

ـ هي أول ما يسيل إلى الأرض من جسدي!!

قالت زليخة، وقد فاضت بها اللهفة، وطغى الشيطان على كل مشاعرها:

ـ فما أجمل وجهك!!

قال يوسف:

ـ هو إلى التراب.

كان يوسف يحاول أن يرد على سيدته بكلمات تبعد عنها شيطانها.. لكنها لم تستمع أو تتعظ، شغلتها مشاعرها ورغائبها وذلك الفيض من الرغبة الملحة التي تملأ صدرها. لكنها عادت تقول له:

ـ هيت لك.

ربما راودت يوسف نفسه أن يطيع سيدته فيما تطلبه منه، ولكن الله عصمه من الزلل؛ لأنه من عباده المخلصين، فانتزع من نفسه الفكرة، وتذكر سيده، فقال لسيدته.. يبعدها عنه:

ـ معاذ الله.. إنه ربي أحسن مثواي، إنه لا يفلح الظالمون.

كان يوسف بكلماته يعني زوجها عزيز مصر، الذي لا ينكر فضله عليه، ولكن زليخة أسرعت إلى يوسف لتزداد التصاقًا به.. تحاول أن تذكي عاطفته، وأن تدفعه إليها، لتروي منه ظمأ عواطفها.

ابتعد يوسف عن سيدته، أعطاها ظهره، يحاول أن يهرب، أحست زليخة أن آمالها ستنهار بعد أن عرت نفسها، وجراح فؤادها أمام عيني عبدها دون أن تحقق رغبتها، فحاولت أن تشد يوسف إليها، فأمسكت بقميصه لتمنعه من الهرب حتى مزقته، وهو يحاول الابتعاد عنها.

لم يهتم يوسف بتمزيق قميصه، فاستمر يحاول الهرب، وهي تجري وراءه، تحاول أن تدفعه إليها، حتى استطاع يوسف أن يفتح أحد الأبواب الموصدة، وخرج منه.

(4)

ما كاد يوسف يخرج، حتى وجد أمامه مفاجأة لم يتوقعها.. كان سيده قد أقبل من الخارج على غير ما توقعت امرأته!! فرأى يوسف يجري مسرعًا، تتبعه زليخة.

صورة أبهمت الحقيقة أمام عينيه، وقبل أن يستمر الرجل في حيرته.. أسرعت إليه امرأته، وقد فاضت دموع حاولت أن تذرفها عيناها، وبكلمات خبيثة صنعتها طبيعتها الماكرة، هتفت بزوجها، وهي تختلس النظر إلى يوسف، وقالت:

ـ ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: 25].

كان من الطبيعي أن يدافع يوسف عن نفسه أمام سيده، وهو البريء المتهم، فقال لسيده، مشيرًا إلى سيدته:

ـ ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: 26].

كان مع عزيز مصر رجل آخر.. يقال إنه كان ابن عم زليخة، فاحتكم إليه يوسف، لعله كان يعلم عنه صدقه وأمانته وفراسته وعدله.

بينما وقفت زليخة تشعر بسوء ما فعلت، وأنها قد ضلت الطريق إلى قلب يوسف، في انتظار ما تؤكد به صدقها، قال قريبها الشاهد لما رأى من أمرها وأمر يوسف.

ـ ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: 27].

تفحص الرجل قميص يوسف بعين مجرَّدَة، بعيدًا عن الانحيان، فإذا هو ممزق من ظهره.. لا من صدره.

دليل يؤكد براءة يوسف، ويدين سيدته. مما جعل عزيز مصر يدرك أن يوسف صادق، وأنه بريء مما اتهمته به امرأته، ولكن ماذا يفعل في هذا الموقف، وكيف له أن يتصرف؟ فآثر إنهاء الموضوع، والتكتم على ما حدث، وما يملك إلا أن ينصح يوسف، فقال له:

ـ ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [يوسف: 29].

واتجه إلى امرأته وقال لها:

ـ ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: 29].

قضي الأمر، وفشلت زليخة في أن تنال رغبتها، ونجح يوسف في عدم الوقوع في الخطيئة، وفي إثبات براءته.

ربما يبدو هنا سؤال.. لماذا لم يأمر عزيز مصر بسجن يوسف كما طلبت منه امرأته؟.. لعل زليخة طلبت منه أن يبقي على يوسف في خدمتها حتى لا تحرم منه، أو لعل الآمال داعبتها أن تمنحها فرصة أخرى، لتنال من يوسف في الغد ما عجزت عنه بالأمس!!

وهكذا استمرت حياة يوسف في قصر عزيز مصر، وإن تغيرت نظرته إلى امرأته، وتغيرت نظرة امرأته إليه، وبدا كأن بينهما ثأرًا[1].

(5)

كان من الممكن أن تمضي الأمور كما كانت في قصر عزيز مصر.. لكن الأقدار أبت إلا أن تفرض ما شاءه الله، لتثري أحداث شخصيات أخرى.. بدت على الساحة، أفرزتها ما ووجهت به زليخة.

بطريقة ما خرج السر الذي حاول عزيز مصر أن يكتمه.. خرج من القصر. ربما كان ذلك عن طريق إحدى وصيفات زليخة التي كانت هي الأخرى تكن ليوسف إعزازًا ومودة، فكان حديثًا تناقلته الألسن بين امرأة الخباز وامرأة الساقي وامرأة الحاجب، ليصل إلى مسامع كثيرات من صاحبات زليخة اللائي هالهن الأمر، وأصابتهن الدهشة.. كيف لها أن تراود عبدها عن نفسها، ولاكت الألسنة امرأة العزيز باللوم على ما فعلت، اتهمنها بحبها وعشقها ليوسف مما أساء إليها، واعتبرن ما فعلته ضلالاً.

---

(1) تشابهت أحداث قصة يوسف في العهد القديم (التوراة) مع أحداث القرآن الكريم، كقصة بمدلول أحداثها، وتطوراتها، وإن اختلفت في بعض الاختلافات التي لا تؤثر على محور القصة.

- فقد جاء في الإصحاح 39 من سفر التكوين (وحدث أن امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف، وقالت له: اضطجع معي، فأبى، وقال لامرأة سيده: هو ذا سيدي لا يعرف ما في البيت، ولا يمسك عني شيئًا غيرك، لأنك امرأته، فكيف أصنع الشر العظيم وأخطئ، وكان إذ كلمت يوسف يومًا فهو لم يسمع لها، ثم حدث أن دخل البيت ليعمل عملاً ولم يكن إنسان من أهل البيت، فأمسكت بثوبه قائلة: اضطجع معي، فترك يوسف ثوبه في يدها، وخرج، فنادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة: انظر جاء إلينا رجل عبراني ليداعبني، دخل ليضطجع معي، فصرخت بصوت عظيم، فهرب) راجع الفقرات 7 ـ 20 من الإصحاح 39 سفر التكوين.
- فالاختلاف هنا في كثرة محاولات امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه، لكن القرآن الكريم لم يذكر هذه المراودة إلا مرة واحدة.
- كذلك جاء في العهد القديم أن يوسف ترك ملابسه بجانب امرأة العزيز وهرب بينما القرآن الكريم ذكر أن قميصه (قد من دبر) وكان هذا دليلاً على براءة يوسف.
- كذلك ركز العهد القديم على أن عزيز مصر أمر بسجن يوسف بعد هذه الواقعة مباشرة، لكن سياق القرآن الكريم يعني أن يوسف بقي في منزل عزيز مصر. كما تتضح الأحداث بعد ذلك. [المؤلف]

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: 30].

وعلمت زليخة بما تتحدث صاحبتها عنها، فأحست بأنها يجب أن تخرس ألسنة هؤلاء النسوة، تضعهن في موضع يدركن فيه عذرها بأنفسهن.. لم تكن تستطيع أن تبرئ نفسها، فدفعها مكرها إلى طريقة أخرى تدفع صاحباتها إلى أن يلتمسن لها العذر فيما فعلت، فهي بشر، ويوسف ما يزال يعيش في قصرها، يضيء وجهه جمالاً وحسنًا.

بعثت زليخة إلى صاحباتها بدعوات لحضور حفل في قصرها.. ربما ادعت في دعوتها أنها بمناسبة عيد ميلادها، أو زواجها، فأقبلن إليها سعيدات، وكلهن أمل في أن يلتقين بيوسف.. هذا العبد الذي وجب له قلب سيدته، فنزلت من علياء سيادتها إلى درك عبوديته، شغفًا به وحبًّا له، ورغبة فيه.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ [يوسف: 31].

لم يكن حفلاً عاديًا.. لكن زليخة حشدت فيه كل مكرها كأنثى.. اختارت المكان، وأخرجت صورة الموقف بطريقتها الخاصة، لم تكن وليمة طعام كما تخيل بعض المدعوات، ولكنها كانت وليمة فاكهة، اختارت زليخة أصنافها بحكمة وحنكة، كانت مما يقتضي قطعه أو تقشيره بسكين، من أجل ذلك وضعت على المائدة لكل واحدة منهن سكينًا ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ [يوسف: 31].

كانت زليخة قد هيأت يوسف بجماله وملابسه وإشراقة وجهه. فبينما النساء منصرفات إلى تقطيع الفاكهة أو تقشيرها، نادت يوسف ـ ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: 31]

ما كاد يوسف يشرق على النسوة بوجهه الملائكي الجميل، وسماحته، والنور الذي يشع من عينيه، حتى أُخذن به، نسيت كل واحدة ما تفعله.. لم يستخدمن السكين التي في أيديهن في تقطيع الفاكهة، وإنما قطعن أيديهن، لم تحس أي واحدة منهن بما فعلت، حتى سالت الدماء من أيديهن.. أنساهن جمال يوسف ما في أيديهن، فبهتن جميعًا وقلن:

ـ ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: 31].

بهذا نجحت زليخة أن تجد لنفسها عذرًا لما بدر منها، لعل صاحباتها يقدرن لها هذا العذر.

بل إن صاحبات امرأة العزيز لم يكتفين بتقطيع أيديهن، وإسالة دمائهن.. بل تمنت كل واحدة منهن أن تحظى بنظرة من يوسف، وهن يتابعنه بنظرات شغف وهيام.

هنالك أحست زليخة بأنها نجحت في مهمتها، وأنها معذورة فيما فعلت، فقد أحسسن بالموقف.

وما تملك زليخة وهي في سعادتها إلا أن تقول لصاحباتها:

ـ ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: 32].

وما يملك يوسف إلا أن يختار السجن، فهو أحب إليه مما تدفعه إليه امرأة العزيز وصاحباتها.

وهكذا انتقل يوسف من سجن العبودية إلى سجن ذي قضبان حديدية أوصدت أمامه الحرية التي كان يحب أن يعيشها!!

(6)

ابتعد يوسف عن سيدته.. ولئن كان سعيدًا بهذا البعاد، فقد أحست زليخة رغم مكرها وخبثها، أن ذكاءها قد خانها، فأخطأت، كان يمكنها أن تبقي على يوسف في القصر لعله ذات يوم يشعر بها، فيبادلها مشاعرها، ولكنها بما فعلت قد باعدت الشقة بينهما!![1]

---

(1) من الملاحظ في قصة يوسف عليه السلام أن القرآن الكريم أطلق على حاكم مصر في ذلك الوقت لقب الملك، ولم يطلق عليه لقب فرعون كما جاء في موسى عليه السلام.. وهذا دليل على أن قصة يوسف وقعت أحداثها في فترة كان يحكم مصر ملوك الهكسوس، الذين حكموها في فترة من تاريخها، واقرأ قوله تعالى:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ [يوسف: 43].

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ [يوسف: 50].

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: 54].

﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: 72].

﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: 76].

أما في العهد القديم، فقد جاء اللفظ باسم فرعون حينًا، والملك حينًا آخر.

(راجع الإصحاحات 40 ـ 42 من سفر التكوين)

لسنا في حاجة إلى أن نتابع يوسف في سجنه، وما كان بينه وبين الساقي والخباز.. زميليه في السجن، وماذا رأى كل منهما في حلمه، وكيف فسر يوسف حلم كل منهما، لتبدو قدرته على تأويل الأحلام، وليكون هذا مرحلة جديدة في حياة يوسف وامرأة العزيز.

نجح يوسف في تفسير حلم ساقي الملك الذي خرج من السجن بريئًا، ليعيش حياته في قصر الملك، حتى إنه نسي وعده ليوسف.. أن يذكره عند الملك (أنساه الشيطان ذكر ربه).

ثم شاءت الأقدار أن يكتمل نسيج الأحداث، حدث ذلك حينما رأى الملك حلمه: ﴿سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾

[يوسف: 46]

هنا تذكر ساقي الملك يوسف الذي فسَّر له رؤياه وهو في السجن، وتحقق تفسير الرؤيا، فأخبر الملك بذلك، وأخبره أن يوسف هذا هو الذي يستطيع أن يفسر له رؤياه، بعد أن عجز عن ذلك الكهنة، وقالوا له: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ [يوسف: 44].

وسرعان ما طلب الملك من ساقيه أن يأتيه بيوسف، لكن يوسف رفض[1] الخروج من السجن إلا بعد أن تثبت براءته وطلب من الملك أن يستدعي امرأة العزيز وصاحباتها، لتدلي كل منهن بما حدث، قال يوسف لرسول الملك:

- ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾

[يوسف: 50]

لا شك أن هذا كان مفاجأة لم يتوقعها الملك ورسوله، كيف يرفض يوسف أن يتحرر من قيود السجن وضيقه؟! كيف يحرم نفسه من متعة الحرية؟! لكن يوسف كان واثقًا من براءته.. هكذا نسجت الأقدار الأحداث بحكمة.

وجاءت امرأة العزيز، تتعثر في خطواتها، ومعها صاحباتها، ويعلم الله ما كان يدور في عقولهن جميعًا من أفكار وخواطر تؤرقهن، وما كاد الملك يسألهن عن قصتهن مع يوسف، حتى أخبرنه بالحقيقة، قلن:

(1) لم يذكر العهد القديم حكاية اعتراض يوسف، ورفضه الخروج من السجن إلا بعد أن يأمر الملك باستدعاء صاحبات امرأة العزيز لتحكين له ما حدث، وما كان من أمر زليخة التى أعلنت في هذا المجلس براءة يوسف. [المؤلف]

- ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: 51].

كان هذا بداية لتبرئة يوسف من الخطيئة التي سجن على أساسها.

هنالك لم تتمالك امرأة العزيز نفسها، فقد بدت الحقائق ناصعة أمام عينيها، وهي تدرك حقيقة يوسف وبراءته، فقالت:

- ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: 51].

أما وقد أثبت يوسف براءته، واتضح للملك ورجاله أنه سجن ظلمًا، فقد كان عليه تأويل الرؤيا التي رآها الملك.

ونجح يوسف في تصوير تأويل حلم الملك، فأخبره أن مصر سيعمها الخير الوفير طوال سبع سنوات، تعقبها سبع سنوات عجاف، تنخفض فيها مياه النيل، ويشح الإنتاج، ويقل الخير، وأن على الملك أن يستعد لسنوات الجدب، حتى يجنب شعب مصر الجوع، وذلك بتخزين كميات من القمح في سنوات الخير والبركة، ليوزعها على الناس في سنوات الجدب.

لكن من يستطيع أن يقوم بهذه المهمة؟ من يستطيع أن يقود سفينة الأمان في مواجهة عاصفة الشح بعد سنوات؟

سؤال تردد في ذهن الملك.

مرة أخرى.. فرضت الأقدار نفسها، حين ألهم الله يوسف، وقال للملك:

- ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 55].

(7)

بقي أمر زليخة امرأة العزين، ترى ماذا حدث لها خلال هذه السنوات التي مضت، وماذا كان أمرها من يوسف بعد أن أعلنت براءته؟!

اعتزل عزيز مصر مكانته، أو لعله مات، وبقيت بعده امرأته زليخة بلا زوج، ولا منصب ولا جاه، ولا شك أنها غادرت قصر زوجها، لتعيش كما يعيش باقي

أفراد الشعب.. تحاول أن تتعرف أخبار يوسف، سعيدة بما حققه من نجاحات في عمله، وما استطاع بحكمته أن ينقذ مصر من غائلة الجوع والقحط في السنوات العجاف، ولا شك أنها علمت بأن يوسف قد تزوج واحدة من مصر، إنها (أسنات) ابنة الكاهن فوطي فارع، كاهن مدينة الشمس (أون)، وسماه الملك صفنات فعنيج[1].

وعاش يوسف وزوجه أسنات حياة سعيدة كريمة أنجبا ابنيهما منسي وأفرايم.

سكت القرآن الكريم عن الحديث عن امرأة العزيز بعد ذلك، وكذلك كان العهد القديم.

لكن بعض الرواة السابقين طاب لهم ألا يتركوا زليخة وما أصابها، ودفعهم الخيال، فقالوا: إن زليخة قد آمنت برسالة يوسف، لكن الدهر أصابها بالسوء والفقر، وأنها ذات يوم لقيت يوسف، فعرض عليها الزواج، ولكنها رفضت، فقد امتلأ قلبها بالإيمان بالله، وابتعد عنها الشيطان الذي كان يوسوس لها، وقالوا فيما قالوه: إن يوسف أكرمها، وبذل لها العطاء، وبعض هؤلاء الرواة قالوا: إن يوسف تزوجها، وحينما دخل عليها وجدها ما تزال عذراء. فالله أعلم.

* * *

رحم الله زليخة أو (راعيل) امرأة عزيز مصر، وغفر لها ما فعلته في حق يوسف، وعفا عنها لاعترافها وتوبتها، لتكون سيرتها وحياتها عظة وعبرة لكل بنات حواء.

(1) (قال فرعون ليوسف، أنت تكون على بيتي، وعلى فمك يقبل جميع شعبي، جعلتك على كل أرض مصر، وخلع فرعون خاتمه في يده، وجعله في يد يوسف وأركبه مركبته، ودعا فرعون اسم يوسف صفنات فعنيج، وأعطاه أسنات بنت فوطي فارع ـ كاهن أون زوجة ـ وكان يوسف ابن ثلاثين سنة، وولد ليوسف ابنان من أسنات البكر منسي والثانى أفرايم) سفر التكوين الإصحاح 41 فقرات 77 ـ 52.

الفصل السابع

رَحْمَــة

زوج أيوب عليه السلام

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾

[ص: 41 ـ 44].

(1)

عقارب الزمن كانت تشير إلى منتصف القرن السادس عشر قبل الميلاد.

كان الشتاء قد أدبر، فاكتست سهول حوران[1] بالكلأ الأخضر، وأينعت حقول القمح.. تتطاول سنابلها، كأنها جدائل من الذهب، أبدع الخالق نظمها، وأقبل الربيع، مزهوًا بنسماته الرقيقة المعطرة بشذاه، وخرجت الطيور من أعشائها تغني للطبيعة أعذب ألحانها، وبدأ سهل حوران في أبهى حلله وحلاه، يموج أهله بالحركة والنشاط.

جلس نبي الله أيوب[2]، يتابع على مدى ما يمتد به البصر إبله وأغنامه وخيوله، وهي ترعى الكلأ في الوادي، ويسعد بتلك الضياع الواسعة المتجاورة، في مساحة تزيد عن خمسمائة فدان.. هي ملك له، سعيدًا بفضل الله عليه، وما أعطاه من مال وبنين وضياع وماشية تتكاثر أعدادها، وتنتظم قطعانها، وكان أكثر سعادة بما وهبه الله من صحة وعافية.

---

(1) حوران: كانت تقع في المنطقة شرق بحر لوط (البحر الميت الآن) ونهر الشريعة (نهر الأردن الآن) وهي منطقة سهلية تقترب من بادية جلعاد، كان يحيط بها عدة دول قديمة. الآراميون في الشرق، والعموريون والمؤابيون والآدميون في الجنوب، والكنعانيون والفينيقيون في الغرب، هذه المنطقة هي جزء الآن من المملكة الأردنية الهاشمية، كانت تقع بها عدة مدن: بصرى ودرعا، وفي الشمال دمشق، هذه المنطقة هي التي كان يعيش فيها نبي الله أيوب.

(2) هو أيوب بن أموص بن زراح بن روم بن العيص بن إسحق بن إبراهيم عليهما السلام، كانت أم أيوب من سلالة هاران أخي إبراهيم عليه السلام، بعث الله أيوب نبيًا إلى قومه سنة 1500 ق.م، وقد ورد ذكر أيوب في القرآن الكريم 4 مرات (الآية 163 من سورة النساء، والآية 84 من سورة الأنعام، والآية 83 من سورة الأنبياء، والآية 41 من سورة ص) وله سفر من أسفار العهد القديم (التوراة تكوين من 42 إصحاحًا.. يقع في الصفحات 793 ـ 833 من الكتاب المقدس، العهد القديم، طبعة دار الكتاب المقدس بمصر).

وما يملك أيوب، وهو يستعيد فضل الله عليه إلا أن ينهض للصلاة، شكرًا لربه.. تشاركه السعادة والشكر لله زوجه الوفية رحمة[1].

كان الله قد بعث أيوب نبيًا إلى أهل حوران، يدعوهم إلى عبادة الله وحده والصدق والحب، فآمن بدعوته بعض قومه. كان من أشهرهم ثلاثة هم: بلدد الشوحي، أليفاز التيماني، وصوفر النعماني.

ومضت الأيام بأيوب وأهله سعداء بما أفاء الله عليهم من نعم: أموال كثيرة، ومراعيه وضياعه الواسعة، عبيده الذين يشاركونه الإشراف على رعي قطعان إبله وأغنامه وخيوله، ويقومون على زراعة ضياعه، وكان أكثر سعادة بما وهبه الله من ذرية صالحة من الأبناء والبنات، نشأهم على الإيمان بالله والحب والصفاء.

(2)

ثم كان ذات يوم..

حقد إبليس على أيوب ما وهبه الله من خير ونعيم، وحقد عليه طاعته لربه، ودوام الشكر له، والاعتراف بفضله، فأراد أن يصرف أيوب عن شكره، يغويه بالجحود والنكران، أليست هذه صفة إبليس: الغواية والضلال للإنسان؟! ألم يقل لربه ذات يوم موقفه من ذرية آدم:

ـ ﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾

[الحجر: 39، 40]

ولأن أيوب من عباد الله المخلصين، فلم يستجب لغواية إبليس، واستمر على شكره لربه، وعبادته والصلاة له.

تسلط إبليس على أيوب ـ بمشيئة من الله ـ يحاول أن يبدل سعادته حزنًا، وغناه فقرًا، وعافيته مرضًا، ليصرفه عن الشكر لربه، مدعيًا ـ إبليس ـ أن أيوب إنما يشكر ربه لكثرة نعمه عليه، وما وهبه الله من ثراء وصحة.

(1) هي رحمة بنت أفرايم بن يوسف بن يعقوب، فهي حفيدة يوسف عليه السلام. [تاريخ الطبري ج1 ص189].

أرسل إبليس ريح السموم أشبه بنار محرقة على مراعي أيوب، فأحرقت الكلأ، واحترق معها كل حيوانات أيوب من أغنام وجمال وخيول وأُتُن، وامتدت هذه الريح العاتية إلى مزارع أيوب وضياعه، فأتت عليها، أحرقتها، لم يبق لها أثر في الوجود، ضاعت معالمها!!

وذهب رجال أيوب إليه، يخبرونه بما وقع لمراعيه وحيواناته ومزارعه وضياعه، فقال لهم:

- الحمد لله. نعمة أعارنيها الله حينًا، ثم استردها مني، فله الشكر.

وقام أيوب إلى صلاته، يشكر ربه.

وكان أبناء أيوب يجتمعون كل أسبوع في دار أحد إخوتهم، يعبدون الله، وليقيموا حياتهم فيما بينهم على الحب والمودة.

وذات يوم.. سلط إبليس شياطينه - بمشيئة من ربه - فهدموا عليهم دارهم، وماتوا جميعًا، وهكذا فقد أيوب أبناءه، وجاءه من يخبره بما حدث، فقال:

- الحمد لله. نعمة أعارنيها الله حينًا، ثم سلبها مني، فله الشكر.

وقام أيوب إلى ربه، يصلي له، ويشكره.

وتسلط الشيطان - بأمر من ربه - على مال أيوب، فتهدمت عليه داره، وضاع ماله، فقده أيوب، ليصبح فقيرًا معدمًا، ومع ذلك بقي أيوب على عهده ودعائه وشكره لربه، والصلاة له، وحمده.

لم يبق من أيوب إلا جسده، وكان أيوب طويلاً وجيهًا، يلبس أحسن الملابس، فأحس إبليس أن أيوب ما يزال صحيحًا معافى الجسد، ومن أجل ذلك، فهو دائم الشكر لربه، والصلاة له.

وابتلي أيوب بمرض[1].. أصابه في جسده، عجز الطب عن شفائه، أصاب جلده، جف غصنه الرطيب، كان أشبه بنجم أفل، ولكن المرض لم ينل من قلبه،

(1) أفاض كثير من الرواة ممن كتبوا قصة أيوب عليه السلام، وتشيَّع لهم بعض المحدثين، فغالى هؤلاء وأولئك في وصف المرض الذي أصاب أيوب، فقالوا إن المرض أصابه حتى إن الدود كان يسرح في جسده، وكان يتساقط منه، وزين لهم الشيطان مزيدًا من الخيال، فزعموا أن إبليس نفخ في منخري أيوب نفخة، اشتعل فيها جسده، وخرجت التآليل من قدميه إلى هامته، ودفعت في جسده حكة، حكها أيوب =

ولا من لسانه، ولا عقله، فبقي مدركًا لكل ما يدور حوله من شئون الحياة، قلبه عامر بالإيمان، يلهج لسانه بالشكر لله، رغم كل ما أصابه من محن وابتلاء.

وطال المرض بأيوب.. سنوات طويلة، والمرض ينخر في جسده، وابتعد عنه أصحابه، وأوحشه الأنيس، وعافه الجليس، وانفض أصدقاؤه الخلصاء من حوله، فلم تعد لهم به حاجة، فلا مال، ولا أملاك، ولا ضياع.. حتى الثلاثة الذين آمنوا به لفظوه، وأنكروا عليه دينه، وقال قائل منهم:

- لو كان أيوب على حق فيما يدعو إليه، لأنقذه إلهه مما أصابه!!

صورة قاتمة كان يعيشها أيوب، تشاركه زوجه رحمة حياته.. صابرة على مشيئة ربها، متحملة قسوة الحياة وشظفها، ومع أنها عرفت العز والثراء والنعيم، إلا أنها صبرت على ما أصابها وأصاب زوجها من بلاء، لا تشكو، ولا تتبرم.

(3)

هكذا تغيرت حال أيوب.. من عز وثراء، وجاه وسلطان وصحة.. إلى فقر وفاقة، ومرض أقعده عن الحركة!!.. وحيدًا بعد أن تخلى عنه أقرب الناس إليه.

وبقيت رحمة بجانب زوجها أيوب، تؤنسه في وحدته، وتواسيه في محنته، تخفف عنه البلاء، وتمنحه بصيص الأمل الذي كان يبدو كسراب، ومع ذلك استمر

= بأظافره، حتى سقطت كلها، ثم حكها بقطع خشنة حتى قطعها، ثم بالفخار والحجارة، فلم يزل يحكها حتى سقط لحمه وأنتن، وغالى بعض هؤلاء، فزعموا أن الدود كان يتساقط من جسد أيوب، وأن أيوب كان يعيده إلى جسده، ليأكله، وهذه كلها مبالغات ننزه عنها أيوب، فالقرآن الكريم لم يحدد نوع المرض الذي أصابه، وإنما قال عنه:

- ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء: 83].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: 41].

ولعل هؤلاء قد اعتمدوا على ما جاء في العهد القديم من أقوال منها.

- (فخرج الشيطان من حضرة الرب وضرب أيوب بقرح رديء من باطن قدمه إلى هامته، فأخذ لنفسه شقفة ليحتك بها وهو جالس وسط الرمال). [الإصحاح الثاني من سفر أيوب فقرة 7، 8 ص795 العهد القديم].

(وأنا كمتسوس يبلى كثوب أكله العث) [سفر أيوب الإصحاح 13 فقرة 28 العهد القديم ص805].

فلاداعي لهذه المبالغات التي ننزه عنها أيوب، وكفاه ابتلاء ما أصابه من فقد كل أملاكه وأمواله وأولاده، ومرض جسده بصورة أو بأخرى، ومع ذلك صبر، واستمر على شكره لله.

أيوب على الصبر، متحملاً آلام المرض. لا يشكو، ولا يعلن حتى عن آلامه.

ابتعد أيوب عن قومه، هجرهم.. وحيدًا إلا من ذكر الله، والدعاء له، وحمده على ما ابتلاه به.

كان على رحمة أن تقوم على رعاية زوجها.. توفر له الطعام والأمن، تقاوم قسوة الزمن عليه.

كثيرًا ما استيقظت رحمة مبكرًا، وودَّعت زوجها بقلب مملوء حسرة على ما آل إليه أمره.. تحاول أن ترسم على وجهها ابتسامة لعلها تريح خاطره، ثم تمضي عنه، وهي تحاول أن تمسح عن مقلتيها قطرات دموع تلمع في عينيها!!

فإذا كان زمن الحصاد.. مضت رحمة نحو الحقول، تلتقط بعض سنابل القمح التي خلَّفها أصحابها وراءهم.. تجمعها في حِجْرِها، ثم تعود إلى دارها، تطحنها، لتقدم منها طعامًا لزوجها.. كان طعامًا مغموسًا بعرقها وجهدها، وذلة نفسها!!

ترى؟ هل تذكرت رحمة، وهي تجمع سنابل القمح، أن جدها يوسف عليه السلام كان ذات يوم أمينًا على خزائن مصر، في فترة عصيبة من تاريخها، وأنه استطاع بحكمته أن يختزن القمح في سنوات الخير؛ ليوزعها على الناس في سنوات الجدب؟

يا لقسوة هذه الحياة، حين ينزل العوز والفاقة بالناس، فتعز عليهم لقمة الحياة.

وما تملك رحمة، وهي تعالج آلام جراح أساها ولوعتها، إلا أن تتماسك على نفسها، وتمسح عن عينيها قطرات دمع كادت تنهل منهما.

* * *

فإذا ما انتهى موسم الحصاد، كان على رحمة أن تتلمس طريقًا آخر، وما كان أمامها إلا أن تعرض على الناس أن تخدمهم.. مجرد أجيرة.. خادمة أشبه بجارية، تقوم على خدمة سادتها، كي تستطيع آخر النهار أن تحصل على أجر، تشتري به لزوجها طعامًا، يقيم عليه حياته، وقد أضناها التعب.

لك الله يا رحمة.. لقد عشت العز والثراء، وجميع مظاهر الترف، لكن القدر قسا عليك، فبدَّل غناك فقرًا، وما تملك رحمة وهي في موقفها هذا إلا تلوذ بربها، وأن تتصبر على أمل.. ربما كان سرابًا.. لكنه أمل ترنو إليه نفسها.. حتى كاد السقم يدب في أوصال جسدها بعد أن طال بها التعب، وأجهدها العمل، تمسح عن جبينها قطرات العرق.. ماضية في طريقها من أجل زوجها أيوب، لعل يد الله تمتد إليه، فتبرئه من سقمه، وتعيد إليه صحته، فيشاركها كفاح الحياة!!

(4)

تعاقبت السنوات على رحمة، وهي على العهد لزوجها.. وفيَّة، صابرة، وإن أنهكها طول الشقاء.

حتى كان ذات يوم..

حاولت رحمة أن تجد عملاً، كما اعتادت.. عرضت خدماتها على كثير من النساء ممن كانت تعرفهن، أو كن يعرفنها، ولهن بها صلة، لكنها أحست أن الجميع يتهربن منها، يوصدْن أبوابهن في وجهها، يرفضن أن تقوم على خدمتهن، فقد علمن ما أصاب زوجها من مرض.. خفن على أنفسهن من أن تنتقل عدواه منها إليهن، إنهن يعلمن صبرها، ولكن المرض الذي أصاب زوجها يدفعهن إلى أن يرفضن أن تدخل دورهن!!

وطال برحمة البحث عن عمل.. أجهدها السير، والسؤال، وأضناها الرفض والصد، وأحست أنها ستعود إلى زوجها المريض، دون أن تحصل على جرعة من ماء، يطفئ بها ظمأه، أومضغة من طعام، تمسك عليه حياته!!

هنالك.. عرضت رحمة أن تبيع إحدى ضفيرتيها، وسرعان ما وجدت من تشتريها، فقد كان شعر رحمة ينساب على ظهرها.. جميلاً.. مرسلاً. حسدها عليه كثيرات ممن كن يعرفنها، وتمنين أن يكون لهن شعر مثله.

يعلم الله مقدار ما ألم برحمة من حزن، وهي تقص إحدى ضفيرتيها.. تنزعها بيدها من رأسها، لتعطيها لتلك المرأة التي اشترتها مقابل مبلغ من المال، كانت رحمة تحس أنها تنزع قطعة عزيزة من جسدها، لكنها لا تملك إلا أن تفعل!!

* * *

كان ثمن ضفيرة رحمة مبلغًا كبيرًا، اشترت به رحمة طعامًا وفيرًا، دسمًا.. سمينًا، وأخذته، وعادت به إلى حيث يقيم زوجها في لهفة للقائه، على أمل أن يسعد بطعامها، أو لعل في هذا الطعام بُرءًا لجسده الذي هدَّه المرض.

وما كادت رحمة تقدم الطعام لزوجها أيوب، حتى دهش لما رأى، لقد اعتاد على طعام، يكاد يقيم به أوده، فكيف؟ ومن أين جاءت رحمة بهذا الطعام الوفير الدسم؟ الذي ينبئ عن أنه بثمن غال، لا تستطيع رحمة أن تكسبه بأجرها، وذهب الشك بأيوب مذاهب شتى، ودار بخلده كثير من الأفكار، كلها تدور حول طرق غير شريفة، حصلت بها رحمة على هذا الطعام، يعلم الله ما دار في رأس أيوب في ذلك اليوم.

ومن أجل هذا.. رفض أيوب أن يأكل من هذا الطعام، عافته نفسه، فليس له حق أن يأكل طعامًا لا يدري مصدره، أو يشك فيه.

ربما حاولت رحمة أن تقنع زوجها بأنها لم ترتكب إثمًا ولا معصية، ولكنها لا تستطيع أن تقول له الحقيقة، حتى لا تؤذي مشاعره، وتجرح كبرياءه، وتعري جراح نفسها، لا تستطيع أن تقول له إنها باعت إحدى ضفيرتيها، فاستمسكت بسرها، على أمل أن يدفع الجوع أيوب إلى تناول الطعام، ولكنه لم يفعل.

وفى اليوم الثاني، أو لعله بعد عدة أيام..

لم تجد رحمة من يستأجرها، الجميع يوصدون الأبواب أمامها، يخشون من أن تنتقل عدوى زوجها إليهن، حتى إذا أحست بأنها ستعود إلى زوجها خالية الوفاض.. اتجهت إلى السيدة التي اشترت إحدى ضفيرتيها، وباعتها الضفيرة الثانية.

وهكذا بقيت رحمة بلا ضفائر، لم يبق من شعرها إلا ما يداري رأسها!!

وعادت رحمة إلى زوجها بطعام وفير دسم.. شهي.. سعيدة، لولا إحساسها بأنها فقدت شيئًا عزيزًا عليها.

مرة ثانية رفض أيوب أن يأكل من الطعام، إلا أن تخبره بحقيقة ما فعلت.. كيف حصلت على هذا الطعام، ولم يبد عليها أنها تعبت، أو بذلت مجهودًا في عمل.

هنالك.. رفعت رحمة عن رأسها خمارها، وقد ملأت الدموع عينيها.. تشهد بأحزانها على فقد ضفيرتيها. بكت، فأبكت معها زوجها الذي أحس بقسوة الظروف التي أحاطت بزوجته، حتى فعلت ما فعلت.

وما يملك أيوب وهو في موقفه هذا إلا أن يقوم إلى ربه، ويصلي له، ويدعوه، ويناديه:

- رب ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: 83].

ما كاد أيوب ينتهي من دعائه لربه، حتى أحس بنسمة رقيقة، تملأ صدره، فاستبشر خيرًا..

ترى هل استجاب الله لدعاء أيوب؟!

(5)

سنوات طويلة، عاشها أيوب يقاسي المرض، صابرًا.. تشاركه زوجه رحمة، رغم ما كانت تكابده من مشاق الحياة، وصعوبة العمل، عند من لم يقدروا لها موقفها، وأنكروا عليها ما كانت تعيشه في عزها، فأصبحت حياتها شقوة دائمة، وما تملك رحمة إلا أن تروض نفسها على هذه الحياة.

سنوات طويلة، وأيوب صابر.. دائم الشكر لربه، والدعاء له، والثناء عليه.. لم يشكُ، ولم يتبرم مما أصابه، يحمد الله في السر والعلانية، يكتم آلام جسده، وأحزان نفسه.

جلست رحمة بجوار زوجها ذات يوم، مغزلها بين أصابعها، لعلها أرادت بذلك أن تسري عنه آلامه، وتخفف عنه حيرته.

في نوبة قلق، قالت رحمة لزوجها:

ـ يا أيوب.. لقد طال بك المرض، وعز عليك الشفاء، أين مالك وماشيتك وولدك؟ أين عبيدك وضياعك؟ وأين الصديق الذي كان يصاحبك، فابتعد عنك؟ وأين ثوبك الحسن، وجسمك الأحسن الذي أبلاه المرض؟!!

ـ .... !!

ـ ألا تدعو ربك أن يرحمك، ويبرئك من مرضك، ويعيد إليك صحتك؟

هنالك انتفض جسد أيوب، وعلت وجهه مسحة من الحزن، كادت تغطي اصفراره، وقال، والأسى يملؤه:

ـ يا رحمة.. استغفري الله، لقد عشت في نعيم وهناء وثراء، وصحة معك بين أولادي سبعين عامًا، أفلا أصبر على البلاء سبعين عامًا أخرى؟! إني أستحي من الله أن أدعوه، فهو أعلم بحالي، وأرحم بي من نفسي، فابعدي عنك يا رحمة وسوسة الشيطان الذي يزين لك السوء، واستغفري الله واصبري.

وما تملك رحمة إلا أن تصمت، وهي تحرك مغزلها بين أصابعها، كأنها تجد في هذا استغفارًا لما قالت، لعل الله يغفر لها زلة لسانها.

وعادت الحياة تمضي بأيوب في انتظار رحمة الله ومشيئته.

(6)

مضت رحمة في طريقها ذات يوم، بعد أن خلَّفت أيوب وحده، تفكر في أمره، وما آل إليه أمرهما خلال سنوات المرض الطويل، التي أصبحت كليل طويل.. غاب قمره ولن يعثر على فجره!!

فبينما هي ماضية في طريقها، أصابت شوكة إحدى قدميها العاريتين، غير المنتعلتين!! فهدأت قليلاً، تنتزع الشوكة من قدمها، فما كادت ترفع رأسها، حتى رأت أمامها رجلاً لا تعرفه في زي غير زي رجال قومها!!

اقترب الرجل من رحمة، وقد رسم على شفتيه ابتسامة عريضة، خيل إلى رحمة أنه يعرفها، ويعرف أمرها، لعله كان صديقًا لأيوب أيام عزه وغناه، ربما اعتقدت رحمة أن الرجل سيقدم لها عونًا، أو مساعدة، فأنصتت إليه، وهو يقول:

- يا رحمة.. قلبي معك، ومع زوجك أيوب.

هو إذن يعرف أيوب، فلا بأس من أن تستمع إليه، فلعل على يديه خيرًا يكون لزوجها.

عاد الرجل يقول:

- يا رحمة.. لقد أصاب زوجك ما أصابه من ذل الفقر والمرض.. وهجر داره بعد أن أظلمت.. أرّق الألم جفنيه، وأقض مضجعه، لم تعد له إلا ذكريات الأيام الخوالي، وطال صبره.. ما يزال على عهده لربه.. يرجوه، ويصلي له.

كلمات حسبتها رحمة بداية طيبة.. فازدادت إنصاتًا إلى الرجل، بينما عاد الرجل يقول:

- فإن شاء أيوب أن تعود إليه صحته وماله وأبناؤه، فإن عليه أن يقولها، كلمة واحدة، تخرج من فيه، بعدها يعود إليه كل ما فقده.

كبرت ابتسامة الرجل على وجهه، وهو يقول:

- أن يكفر بالله، إلهه الذي أصابه بالمرض، وتركه يعاني القسوة والحرمان والوحدة، وأنت معه تقاسين شظف العيش والبؤس والمشاق؛ لتقدمي له كسرة من طعام كل يوم، لا تسد جوعه.

سكتت رحمة قليلاً، وقد دار بذهنها أن الرجل صادق، فلماذا لا يقول أيوب هذه الكلمة، ليحظى بما شاء، ثم يستغفر الله ربه، ليتوب عليه، لا بأس أن يقول أيوب هذه الكلمة الصغيرة، لتعود إليه صحته وأمواله.

ترى هل تستطيع رحمة أن تقنعه بذلك!!

وسرعان ما انصرف الرجل.

عادت رحمة إلى أيوب، وأخبرته بما قاله الرجل لها، لعله يستجيب إلى هذا الرأي، فينتهي شقاؤه، ويعود إليه ماله وغيره.

رغم قسوة مرض أيوب، إلا أنه ثار على غير عادته في وجه رحمة، وقال لها والألم يعتصره، والكلمات تتعثر على لسانه:

ـ يا رحمة.. لقد لقيت إبليس اللعين الذي أراد أن يغويك بالسوء، من قبل.. أغوى آدم وحواء أن يأكلا من الشجرة المحرمة، فعاقبهما الله.. أخرجهما من نعيم الجنة، ليعيشا مشقة الحياة الدنيا، وليقاسيا ومن بعدهما أبناؤهما وأحفادهما، يا رحمة.. لقد أسأت في حقي وحق نفسك وحق الله، فاستغفري لربك، لعله يتوب عليك.

كم حزن أيوب أن تستمع رحمة لنصيحة إبليس، لَخَيْر له أن يعيش مريضًا فقيرًا.. جوعان طوال ما بقي من عمره، من أن تعود له صحته وأمواله على يد هذا الإبليس اللعين، الذي عصى ربه، وتفرغ لغواية بني آدم.

وما يملك أيوب وهو في مرضه إلا أن يلوم زوجه رحمة، وينقم عليها وقال لها:

ـ لئن شفاني الله لأضربنك مائة سوط، عقابًا لك على ما قلت.

ترى؟ هل يقدر لأيوب أن يشفى، وأن يبر بعهده، ويضرب رحمة مائة سوط؟!

(7)

ذات يوم..

مضت رحمة في طريقها، كما اعتادت أن تفعل.. لعله كان موسم حصاد القمح، تجمع سنابله، أو لعلها كانت في طريقها إلى سوق المدينة، لتبيع بعض خيوط غَزَلتها بمغزلها.

وبقي أيوب وحده، يستعيد ذكريات كثيرة وفدت إلى ذهنه الصاحي، الذي لم يستطع المرض أن يجد إليه سبيلا، كان أيوب في ذلك اليوم يتذاكر عزه وثراءه وأبناءه، وما آل إليه أمره، ويعلم الله أنه لم يرتكب خطيئة، ولم يأت بمعصية، وأنه بقي على إيمانه بربه.. لم تزعزعه الأحداث التي لحقت به، ولم تصرفه أحزانه عن الشكر لربه.

كان أيوب قد أمضى ثماني عشرة سنة في مرضه وصبره[1]..

في ذلك اليوم، لأمر شاءه الله.. زحف أيوب مبتعدًا عن المكان الذي تركته فيه رحمة إلى مكان آخر.

بدأ أيوب صلاته لربه، يدعوه، يناجيه.. يناديه، والدموع تتساقط مدرارًا من عينيه الكليلتين.. كان وحيدًا إلا من مؤانسته لربه، فبينما هو كذلك.. خيل إليه أن نورًا أضاء كل ما حوله، ثم سمع هاتفًا يناديه:

- يا أيوب..

دهش أيوب من هذا الصوت.. إنه صوت ملائكي يناديه.. إنه نفس الصوت الذي أمره ذات يوم بعيد أن يدعو الناس إلى عبادة إله واحد.. إله إبراهيم ويعقوب.

تلفت أيوب حوله، يبحث عن مصدر هذا الصوت الذي يناديه، فسمعه يقول له:

- يا أيوب.. اركض برجلك..

أجاب أيوب ما أمره به المنادي، فلا بأس من أن يفعل، فركض بقدمه ركضة خفيفة.. ركضة مريض، عاجز عن الحركة.

وعاد الصوت يناديه:

- هذا مغتسل بارد وشراب.

نظر أيوب عند قدميه، فإذا بئر واسعة.. صفا ماؤها.. لم يكن له بهذه البئر عهد في هذا المكان.. لا شك أن الله أنبعها بمشيئته عند قدميه، لحكمة شاءها.

نزل أيوب إلى بئر الماء، فاغتسل، واغترف بيديه غرفة ماء، قذف بها في جوفه، ودهش وهو يتحسس جسده، فإذا هو سليم معافى، كأنه خلع عنه ثوب المرض، يستنشق رائحة طيبة، وقد لبس رداءً حسنًا، وأشرق وجهه!!

(1) اختلفت الروايات في المدة التي قضاها أيوب، يصارع الفقر والمرض صابرًا، قال بعضهم: كانت ثلاث سنوات، وقال آخرون: كانت سبع سنوات لكن الأرجح أنها كانت ثماني عشرة سنة، ففي حديث لرسول الله ﷺ عن أنس بن مالك أنه قال: «نبي الله أيوب لبث بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد».. [البداية والنهاية ج 1 ص 248].

وما يملك أيوب إلا أن يسجد لله شكرًا على نعمته، لتكون هذه بداية جديدة لحياة جديدة، وجلس أيوب في مكان بعيد عما تركته رحمة.. ينتظر أويتها، ويعلم الله مقدار سعادته وفرحته.

عادت رحمة إلى حيث تركت أيوب، فلم تجده، فراحت تبحث عنه، وأحزنها أنها لم تجده، ترى.. ما وقع له، لعله وقع فريسة لوحش من الوحوش، عجز أيوب بمرضه أن يقاومه، أن يدفعه عن نفسه، فاستسلم له، فكان لقمة سائغة لهذا الوحش، ليتها لم تتركه!! ليتها بقيت بجانبه تذود عنه ما أصابه!!

مهما يكن من شيء، فقد راحت رحمة تبحث عن أيوب، تنظر إلى وجوه الرجال في دهشة، تسأل كل من يقابلها عن أيوب، فلا تجد جوابًا يشفي لهفتها عليه، حتى كاد اليأس يذهب بها مذاهب شتى.

فبينما رحمة ماضية في طريقها، تبحث عن زوجها، رأت رجلا في ثياب حسنة، ينطق وجهه بالسعادة والفرحة، فسألته:

- يا عبد الله.. أما رأيت هنا رجلاً مريضًا، تركته في الصباح، وعدت إليه فلم أجده، والله ما رأيت رجلاً مثلك يشبهه، لولا أن المرض هده.

فنظر أيوب إلى من كانت تحدثه، وقد ملأت الابتسامة وجهه، وقال:

- يا رحمة.. أنا أيوب.. عافاني الله، ورد إليَّ صحتي، هأنذا كما ترين صحيحًا معافى.. إنها مشيئة الله وحكمته.

كانت لحظات يعلم الله مقدار ما أصاب رحمة من سعادة، وهي تنظر إلى زوجها أيوب، وقد ألبسه الله رداء العافية والصحة، وما يملكان إلا أن يلوذا بربهما، يصليان له، ويشكرانه على نعمه وفضله.

وحكى أيوب لرحمة ما سمع، وما فعل، وأشار إلى تلك البئر التي شرب واغتسل من مائها، في دهشة رحمة وسعادتها.

* * *

لكن أيوب كان قد أقسم قسمًا، وعليه ألا يحنث فيه، كان قد أقسم أن يضرب رحمة مائة سوط إن شفاه الله، ترى.. ماذا يفعل أيوب ليبر بقسمه؟ وكيف له أن يعاقب زوجه الصابرة المؤمنة الوفية على إخلاصها ووفائها وصبرها؟!

وبين حيرة أيوب وتردده، واستعداد رحمة، لتنال جزاءها.. سمع أيوب من يهتف به:

ـ ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلاَ تَحْنَثْ﴾ [ص: 44].

جمع أيوب مائة عود من عيدان الريحان، جعلها في حزمة واحدة، وضرب بها رحمة مرة واحدة، تحقيقًا لقسمه، سعيدًا بما هيأه الله له من خير استطاع به أن يفي الله حقه، وأن يبر بقسمه دون أن يصيب رحمة بسوء.

ومضت الأيام السعيدة بأيوب، وأصلح الله رحمة، فأنجبت من البنين والبنات نسلاً، ملأ عليهما حياتهما، وعاد أيوب إلى عمله راعيًا، ورَبَت أعداد أغنامه وإبله، واتسعت مراعيه ومزارعه، وحصل على أموال كثيرة، وبارك الله له في رزقه، وانتهت تلك الأيام الكوالح التي شاء الله بها أن يمتحن أيوب في بلائه، ليعيش الزوجان هانئين سعيدين، شاكرين لله فضله.

﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: 84].

حتى إذا انتهى ما كان لرحمة وأيوب من نسمات الحياة.. صعدت روحهما الطاهرة إلى بارئها، وبقيت ذكرى صبرهما، وتحملهما البلاء نموذجًا للصبر والصابرين، ولتبقى صورة رحمة امرأة أيوب صورة للصبر والوفاء والتضحية على مدى السنين والأيام.

الفصل الثامن

يُــوكَــابِــد

أم موسى وهارون عليهما السلام

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ [طه: 37 ـ 39].

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7].

(1)

كان بنو إسرائيل[1] قد استقروا في أرض جاسان[2].. تلك المنطقة التي تقع شرق دلتا النيل بمصر.. حيث كان نبي الله يوسف عليه السلام قد أسكن أباه يعقوب وأبناءه وأولادهم وأحفادهم، حين جاءوا إلى مصر من أرض كنعان[3]، كان ذلك في فترة سيطرة الهكسوس[4] على مصر، فلقيهم يوسف مرحبًا بهم، وقال لهم:

ـ ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [يوسف: 99].

كانوا ثمانين شخصًا.

ومنذ ذلك اليوم.. أقام بنو إسرائيل حياتهم على رعي الأغنام والماشية، حيث تكثر الحشائش، كلأ للرعي، بالإضافة إلى زراعة بعض مساحات القمح والشعير على المطر، مما أعطى لهم فرصة لتتكاثر أعدادهم، وليهنئوا باستقرارهم، وطيب معيشتهم.

تذكر صفحات التاريخ أن بني إسرائيل كانت لهم مواقف سيئة مع المصريين الذين آووهم، وأمَّنوا لهم حياتهم، ومنحوهم السلام، لكن بني إسرائيل سعوا لأن

(1) بنو إسرائيل: ينتسبون إلى نبي الله إسرائيل الذي هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وكان هؤلاء يعرفون بالعبرانيين، كان مقدم هؤلاء إلى مصر حوالي سنة 1750 ق.م، واستمروا حتى خرجوا من مصر على يد نبي الله موسى عليه السلام حوالي سنة 1205 ق.م.

(2) أرض جاسان: مكانها الآن جزء من محافظة الشرقية.. مراكز: بلبيس وفاقوس والصالحية.

(3) أرض كنعان: فلسطين الحالية.

(4) الهكسوس: هم الحكام الأجانب الذين حكموا مصر في فترة من فترات ضعفها في نهاية الدولة الوسطى، واستمر حكمهم من سنة 1778 ق.م ـ 1580 ق.م واتخذوا مدينة أفاريس عاصمة لهم (صان الحجر حاليًا، التي تقع في محافظة الشرقية).

يكونوا عونًا للهكسوس أعداء مصر، كانوا جواسيس لهم، يحاولون أن يبثوا سمومهم، ويؤلبوا الأعداء عليهم.

كان عصر يوسف قد انتهى، فلم يجد هؤلاء من يردهم إلى الصواب، وكأنما استمرءوا هذه الخيانة، مما جعل المصريين، حكامًا وشعبًا، يكرهون بنى إسرائيل، يتحينون فرصة للانتقام منهم.

* * *

حتى استطاع أحمس[1] أحد فراعنة مصر الأبطال طرد الهكسوس من مصر، ليتولى المصريون حكم أنفسهم بأنفسهم.

وسارت أمور الدولة المصرية، واستطاع فراعنة مصر أن يقيموا دولة واسعة، وإن لم ينس المصريون عداء بنى إسرائيل لهم.

وما كان بنو إسرائيل يدرون ما يخبئه لهم القدر في مكمنه، وأنهم سيتجرعون كأس العذاب، حتى ثمالتها، جزاء ما أجرموه في حق أصحاب الوطن.

الشر بالشر، وإنكار الفضل جريمة يستحق فاعلها العقاب.

لم ينس المصريون جيلاً بعد جيل سوء مواقف بني إسرائيل، فاستخدموهم في السخرة والأعمال الشاقة، واتخذوا منهم عمالا في بناء المدن مثل مدينة فيتوم[2] ومدينة برعمسيس[3]، وتعبيد الطرق، وإقامة الجسور على النيل أيام الفيضان.

واشتد العذاب والقسوة لبني إسرائيل في عهد فراعنة الأسرة التاسعة عشرة.. يتزايد عذاب بني إسرائيل عامًا بعد عام.. حتي ضجوا بالشكوى إلى ربهم يسألونه الرحمة بهم مما يلاقونه في حياتهم من مشقات الحياة، وكانوا يدركون سبب ما حاق بهم من ظلم.

ترى.. هل أدرك هؤلاء القوم خطأهم في حق مصر وشعبها.

---

(1) أحمس: أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة أولى أسرات الدولة الحديثة، حكم أحمس مصر في الفترة من 1550 ق.م ـ 1525 ق.م.

(2) فيتوم: مكانها الآن تل المسخوطة بمحافظة الشرقية.

(3) برعمسيس: كانت تقع في شرق الدلتا، بناها الفرعون سيتي الأول، وأكملها رمسيس الثاني، جعلها الرعامسة عاصمة لهم في الشمال، بعد اتساع الإمبراطورية المصرية في غرب آسيا، مكانها الآن قرية قنتير إحدى قرى مركز فاقوس بمحافظة الشرقية.

(2)

ذات يوم.. اجتمع بعض رجال بني إسرائيل وقد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر، اجتمعوا ليتدارسوا ما آل إليه أمرهم من شقاء، يتحسرون على حالهم، ليتهم لم يحضروا إلى مصر، إنهم يدفعون خطأ آبائهم وأجدادهم الذين ساندوا الهكسوس.

قال أحدهم، يحاول أن يخفف عن قومه ما يصيبهم:

ـ فادعوا برب إبراهيم ويعقوب أن ينقذنا مما نعيش فيه من آلام السخرة والتعذيب، والإهانة التي فاض بها الكيل.

هنالك انبرى أحد كهنتهم، وقال:

ـ لقد وعدنا الرب أن يخرج منا رسولاً، يعيد إلينا كرامتنا، وينهي عهد الظلم الذي اشتد علينا، وينتقم لنا من المصريين الذين يثقلون علينا العذاب والقسوة، ويقضي على الفرعون الذي جنَّد رجاله لتعذيبنا وتسخيرنا، حتى لم نعد نستطيع أن نؤدى للرب صلاته.

كان جدعون أحد رجال بني إسرائيل حاضرًا، جعل من نفسه جاسوسًا لفرعون على قومه، يخبره ورجاله بما يقوله بنو إسرائيل ـ أُشرب قلبه بالخيانة، خيانة بني جنسه من أجل منصب أو مال يبتغيه من فرعون.

ما كاد اجتماع بني إسرائيل ينتهي، حتى أسرع جدعون إلى فرعون مصر، وكان رمسيس الثاني[1]، فأخبره بما يقوله قومه، وحذَّره من شر بات يهدده، إن خرج من بني إسرائيل نبي يكون سببًا في هلاكه، وضياع ملكه، كما يقول كاهنهم، أو كما يتصورون في خيالهم.

لذلك أحس رمسيس الثاني بأن خطرًا يوشك أن يقع به، فكان عليه أن يمنعه من وقوعه.

---

(1) رمسيس الثاني: هو أحد ملوك الأسرة التاسعة عشرة، حكم مصر في الفترة من 1301 ق.م ـ 1224 ق.م.
[تاريخ مصر منذ أقدم العصور ـ جيمس هنري]

ما كاد رمسيس ينتهي من أعماله، حتى هرع إلى فراشه، لكن السهد لحق به، ونبا به مضجعه، حتى إذا عبثت بجفنيه سنة من النوم، رأى حلمًا أفزعه.

رأى رمسيس كأن نارًا، شديد أوارها.. هَبَّت من أرض كنعان، فأحرقت دور كل المصريين، ولكنها لم تصل إلى دور بني إسرائيل في أرض جاسان.

استيقظ الفرعون من حلمه فزعًا، وقد ازداد إحساسه بالخطر الذي يوشك أن يقع به، يحاول أن يستبين غوامض حلمه، فما كاد يشرق النهار، حتى بعث إلى كهنة دينه، وسألهم تفسير هذا الحلم الذي رآه، وكان الكهنة صادقين في قولهم، قالوا له والخوف يملأ نفوسهم:

ـ أيها الفرعون العظيم.. هذا الحلم ينبئ أنه سيولد في بني إسرائيل طفل، يكون سببًا في هلاكك وضياع ملكك.

منذ ذلك اليوم.. أمر فرعون مصر بذبح كل من يولد من الأطفال الصبيان الذين يولدون في بني إسرائيل، حتى يضمن القضاء على الطفل الذي سيكون سببًا في هلاكه، وأمر رجال فرعون قابلات بني إسرائيل أن يبلغن عمَّن يولد فيهم، ليقضوا عليه.

ترى.. هل سينجح الفرعون رمسيس الثاني فيما أراده؟!

(3)

في تلك الفترة من تاريخ مصر الزاخر بالأحداث الهامة.. وضعت يوكابد[1] إحدى نساء بني إسرائيل طفلها.. كان المولود ذكرًا.. لا شك أن الحياة ستنتهي به كما انتهت بكثير من أطفال بني قومها الذين ذبحهم رجال فرعون، على مرأى ومسمع من أمهاتهم، وبكى الباكون، وتفجَّعُوا على أبنائهم.

---

(1) يوكابد من كابود: الكرامة والاحترام باللغة العربية. [قصص القرآن للشيخ عبد الوهاب النجار ص188]
في بعض الروايات كان اسمها يوحابيل، وقال آخرون: كان اسمها أيارخا، أو أياذخت.
[البداية والنهاية ج 1 ص 265]
لم يذكر القرآن الكريم، ولا العهد القديم اسم أم موسى، وإنما ذكرت بمدلول موقعها من موسى كأم له.

لك الله يا يوكابد.. ماذا تفعل حين ترى ابنها تتقاطر دماؤه على يد قساة رجال فرعون الذين خلت قلوبهم من الرحمة؟ سؤال كان يتردد في ذهن يوكابد.

كان عمرام[1] زوج يوكابد خارج داره.. شاء له رجال فرعون أن يسخروه في تعبيد أحد الطرق الذي يصل إلى قصر فرعون في مدينة برعمسيس العاصمة، رجل تقدمت به السن، يرزح تحت أعباء الأعمال الثقيلة التي ينوء بها كاهله، لم ير حتى مولد ابنه.

ومنذ وضعت يوكابد وليدها، وهي تفكر كيف تستطيع أن تنقذ ولدها من سكين رجال فرعون، لقد منحت القابلة بعض مال، حتى لا تهتك حجاب سرها لرجال فرعون، لكن من يضمن لها أن تكون القابلة وفيَّة في عهدها لها؟!

فبينما يوكابد في مخاوفها.. سمعت ما حدث لابن جارتها راحيل.. لقد علم رجال فرعون أنها وضعت طفلها (أشير)، فهاجموا دارها، وغرس أحدهم نصل سيفه في بطن الطفل الذي سرعان ما انتهت حياته.. هكذا شاء فرعون.

علمت يوكابد بما حدث لجارتها وابنها، وسرعان ما سمعت طرقات تدق باب دارها. لاشك أنهم رجال فرعون جاءوا إليها، لذبح ابنها قبل أن تسعد به، وليلحق ابنها بابن راحيل، أليست هذه مشيئة فرعون؟

لذلك أسرعت يوكابد، فتزودت بنظرة إلى وليدها، ودون أن تدري.. دسَّت ابنها في الأتون، رغم أنه كان مشتعلاً منذ قليل، لا شك أن بصيص نيرانه لم تخمد بعد!! غم الموقف على إدراكها، لكنها كانت مشيئة شاءها الله. إن ابنها وديعة، أودعها الله عندها.

ودخل رجال فرعون على يوكابد، يبحثون عن طفل لها، أخبرتهم القابلة به، وأن على يوكابد أن تقدم إليهم طفلها، ليكون مصيره مثل مصير ابن جارتها وغيرها من نساء قومها، فزفرت يوكابد زفرة حارة، كادت تتساقط معها ضلوعها من هول مخاوفها!! فما أقسى حياتها إن فقدت ابنها!!

(1) هو (عمرام) بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، جاء اسمه في القرآن الكريم عمران ثلاث مرات، وفي العهد القديم باسم عمرام.

بحث رجال فرعون عن الطفل، فلم يجدوه، وكان من الطبيعي ألا يبحثوا في الأتون الذي بدا لهم أنه مازال به نار، ومن العبث أن يبحثوا فيه عن طفل حديث الولادة، فأغمد الرجال سيوفهم، وانصرفوا عن دار عمران إلى غيرها، لعلهم يجدون طفلاً يعملون فيه سيوفهم.

لا شك أن يوكابد كان قلبها يرتجف، ونفسها تذوب حسرات.

حتى إذا خرج رجال فرعون، حمدت لرب يعقوب فضله.

سرعان ما تذكرت يوكابد أنها دسَّت ابنها في الأتون، لا شك أنه احترق!!

واحسرتاه لك يا يوكابد.. لقد أرادت أن تنقذ ابنها من السكين، فدفعت به إلى النار؛ ليحترق!!

بقلب يفيض جزعًا.. مدَّت يوكابد يدها إلى الأتون، لتخرج منه ابنها المحترق، ولشد ما كانت فرحتها التي غلبت على دهشتها، حينما وجدت ابنها ما يزال حيًّا، يمص إصبعه، لقد تخطاه الموت، وكان على بعد خطوة منه، كانت النار بردًا وسلامًا عليه.

يا لرحمة الرب بها وابنها، لا شك أن يوكابد في هذه اللحظة، تذكرت جدها نبي الله إبراهيم الذي حفظه الله، وجعل النار التي أوقدها له الملك النمرود.. جعلها بردًا وسلامًا عليه.

هنالك أسرعت يوكابد إلى ربها تصلي له، وتشكره وتدعوه، ودموع غزيرة تنحدر على وجنتيها، تشاركها ابنتها صلاتها.

(4)

بضعة شهور.. كانت أيامها تمضي ثقيلات، لعلها ثلاثة (كما جاء في العهد القديم) أبقت يوكابد على ابنها، تقوم على رضاعته في دارها رغم مرارة مخاوفها، وقد أقضت الوساوس مضجعها، حتى ألح السقم على جسدها، ولعل زوجها عمران في تلك الفترة قد زارها، فشاركها مخاوفها، فما كان يسمعه عما يفعله رجال فرعون، جعله يخشى على ابنه الوليد الذي يتمنى أن يكون أخًا لهارون.

كانت يوكابد تعيش على أمل.. لعل شيطان فرعون يبتعد عنه، أو لعل الله يهديه إلى الصواب، فيكف عما يفعله ورجاله!!

فبينما يوكابد جالسة ذات يوم في صحن دارها، سمعت هاتفًا يناديها:

ـ ﴿أَرْضِعِيهِ[1] فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي﴾.

ما هذا الذي تسمعه يوكابد؟!.. إنها تستطيع أن ترضعه، ولكنها كيف تلقيه في اليم، لتلتهمه الأسماك الجائعة؟ كيف يطاوعها قلبها أن تفعل هذا؟! أفكار تصارعت في ذهن يوكابد.

وعاد صوت الهاتف ينادي يوكابد:

ـ ﴿وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7].

ازدادت دهشة يوكابد مما تسمع، ولكنها أحست بالأمل يتسرب إلى قلبها، فيزيده اطمئنانًا.. إنها واثقة من مشيئة ربها، لا شك أنه سيحفظه، ويعيده إليها، وأن الله سيبعثه نبيًا.. بهذا يخبرها الهاتف.

ترى.. هل دار بخلد يوكابد في تلك اللحظة، أن ابنها هو النبي الذي تحدثت عنه صحف إبراهيم، والذي سيعيد إلى بني إسرائيل أمنهم، ويخلصهم من عذاب فرعون؟!!

سؤال ستجيب عنه الأحداث بعد ذلك.

خواطر كثيرة ـ يعلمها الله ـ دارت في ذهن يوكابد، بين الشك واليقين.. بين الخوف والاطمئنان.. بين الحذر والتواكل على ما سمعت.. لكنها في النهاية.. هداها الله إلى الحق، فاستسلمت للواقع، رغم مرارته، ورغم أنها قد تفقد ابنها، والأمل يداعبها أن يعود إليها، ألم يخبرها بأنه سيعود إليها؟

---

(1) في تعبير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ...﴾ [القصص: 7].
ما جعل بعض العلماء ومنهم ابن حزم، يقولون: إن أم موسى نبية، لأن الوحي لا يكون إلا للأنبياء، وكذلك كان وحي الله لمريم، ورفض آخرون ومنهم الأشعري هذا الرأي، لأن الوحي لم يكن لأم موسى بالنبوة، ولكنه كان وحي إخبار وإلهام وإرشاد، وليس للتبليغ، وما عرفت النبوة طريقها إلى النساء..
ولعل ما يؤكد هذه الحقيقة أن الله أوحى إلى النحل في قوله تعالى:
﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: 68].
فالوحي هنا ليس للتبليغ، ولكن للإخبار، والله أعلم. [المؤلف]

ربما كان زوجها عمران حاضرًا مشاعرها، ولعله شجعها على أن تفعل ما أمرها به الهاتف، فالرب الذي أنقذ إبراهيم من نار النمرود، وأنقذ سارة من سوء ما أراده بها ملك مصر، قادر أن يحفظ له ولزوجه ابنهما الذي كان ما يزال رضيعًا، في حاجة إلى من يدرأ عنه الجوع.

كان على يوكابد أن تنفذ الأمر سرًا، حتى لا تفضحها عيون رجال فرعون، فذهبت إلى أحد النجارين الذين كانت تثق فيهم، قيل كان اسمه حزقيل، وطلبت إليه أن يصنع لها صندوقًا محكمًا، وأن يطليه بالقار، حتى لا تتسرب إليه المياه.

ربما حاولت يوكابد أن تخفي حقيقة ما أرادت، حتى لا ينكشف سترها، لكن إيمانها بالله كان أقوى من أن يزعزعها الخوف.

بعد أن انتهى النجار من صنع الصندوق.. أخذته يوكابد بلهفة، وأسرعت إلى دارها، ترافقها ابنتها.

(5)

في دار عمران.. أطالت يوكابد النظر إلى ابنها، تودعه، ويعلم الله ما كان يدور في ذهنها من هواجس وأفكار، تصارعت بداخلها.. لولا أنها كانت تستعيد كلمات الهاتف لها، واعتصمت بربها.. رب إبراهيم ويعقوب.

أرضعت يوكابد ابنها الذي لم يدم بقاؤه في دارها طويلاً، حتى إنها لم تتخذ له اسمًا، فإذا ما انتهت من رضاعه، أحاطت جسده النحيل ببعض من عيدان البردى[1] لتحميه من التقلبات التي قد تصيبه، وهو في مكمنه بالصندوق.

في هدأة الليل وسكونه.. مضت يوكابد وابنتها[2] تحمل الصندوق، تتوارى كل منهما عن أعين رقباء رجال فرعون، حتى إذا وصلتا إلى مكان ما من النهر.. ألقت يوكابد الصندوق في الماء، وكان النهار قد بدأ يشرق. ألقته، ويعلم الله ما كان ينوء به كاهلها من أحزان ثقال، تشاركها ابنتها.

---

(1) البردي: نبات غير مثمر، يكثر في شمال الدلتا، كان ينمو طبيعيًا.

(2) ابنة يوكابد التي هي أخت موسى وهارون، قال بعضهم كان اسمها مريم (قصص القرآن للشيخ عبد الوهاب النجار ص189) والثعلبي في كتابه عرائس المجالس ص197، راجع قصتها في الفصل التاسع من هذا الكتاب ص 113 على أننا يجب أن نفرق بين مريم هذه التي أمها يوكابد، ومريم ابنة عمران أم عيسى عليه السلام.

وربط الله على قلب يوكابد، وهي تلقي[1] بالصندوق الذي وضعت فيه ابنها.. صابرة على مشيئة الله، موقنة في قدرته وعدله، ويعلم الله ما يجول في خاطرها من أفكار واحتمالات وآمال.

مضت يوكابد مع ابنتها، تتابعان الصندوق الذي فيه الصغير، يرتجف قلباهما مع حركة الصندوق، وهو يطفو فوق صفحة مياه النهر، يتقاذفه الموج حينًا.. يهبط به تارة، ويرفعه أخرى.. تخامر المخاوف يوكابد، حتى لتلومن نفسها فيما فعلت، ولعلها تمنت أن تستعيد الصندوق من اليم!!

بضع خطوات سارتها الأم مع ابنتها بحذاء ساحل النهر، ترقبان الصندوق عن بعد، حتى إذا ابيض وجه النهار، خشيت يوكابد أن ينكشف الحجاب عن أمرها، فقالت لابنتها:

ـ قصيه.. اتبعيه يا ابنتي.. اتبعي أخاك الذي شاء له القدر أن يفارقنا، واحذري أن يعرف أحد من رجال فرعون حقيقة أمرك، ثم انظري ماذا سيحدث له.

تركت يوكابد ابنتها بقلب مكلوم، وما تزال عيناها شاخصتين إلى الصندوق، حتى ليخيل إليها أن نظرها يخترق جدران الصندوق الخشبية، فيخيل إليها أنها ترى ابنها، وهو يمص إصبعه!! يمضي في طريق لا تدري نهاية لها!!

عادت يوكابد إلى دارها، في انتظار أخبار من ابنتها، لتطمئنها على وليدها الصغير.

(6)

طال اليوم بيوكابد، وهي تنتظر مقدم ابنتها، تحاورها أفكار شتى، وتتخبط بداخلها المخاوف والأماني.

حتى إذا كان وقت الأصيل.. عادت ابنة يوكابد، بوجه تعلوه الفرحة، وتتسع الابتسامة على شفتيها، وقالت لأمها في مودة وسرور وهي تحتضنها:

(3) العهد القديم (التوراة) جاء في الإصحاح الثاني تكوين فقرة 2، 3 ما يفيد أن أم موسى وضعت الصندوق الذي فيه ابنها بين الحلفاء على شاطئ النهر، ودفعت أخته لتعرف ماذا يفعل به.. أي أنها لم تلقه في اليم. [المؤلف]

ـ أبشري يا أماه.. لقد رسا الصندوق الذي بداخله أخي عند قصر فرعون.

غامت على وجه يوكابد سحابة قاتمة، وهي تهتف بابنتها في دهشة وخوف:

ـ قصر فرعون؟!

أسرعت الابنة تطمئن أمها، وقالت:

ـ ووجد أخي من الملكة آسية كل الحب.. سعدت به وابنتها وهي تحتضنه بأمومة وحنان، ومنذ الصباح وهى تبحث عن مرضعة له، فقد أدركت أنه جوعان، وجاءت بكثير من المرضعات، يحاولن إرضاع أخي، ولكنه رفضهن جميعًا، امتنع عن الرضاع منهن، ومن أجل ذلك، لم أتمالك نفسي أن أدعوك لرضاعه، هلم يا أمي إلى قصر فرعون، لترضعي ابنك.. شاء الرب لك هذا، لعلها بداية لعودة ابنك إليك.

بسرعة.. اصطحبت يوكابد ابنتها إلى قصر فرعون، ولسانها يلهج بالشكر للرب، فقد بدا في أفق حياتها شعاع من ضياء الأمل، لا شك أن يوكابد تذكرت قول الهاتف لها:

ـ ﴿وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: 7].

بين دهشة الملكة آسية وابنتها إست نفرت والجواري والخدم.. ألقمت يوكابد ثديها للطفل الذي كان بالصندوق، فتلقفه ورضع منه ما شاء، وبدت الفرحة على وجوههم، وما تملك آسية إلا أن تشكر يوكابد على ما فعلت، وما كانت تدري أنها أمه.

إنها مشيئة الله، ولا راد لمشيئته.

كم سعدت يوكابد بفضل الله عليها، فقد عادت لترى ابنها وترعاه.. بعد أن ألقته في اليم..

ترى.. هل يقدر ليوكابد أن يعود إليها ابنها بين أحضانها، لتنعم به، وينعم هو بحنان أمومتها؟!

(7)

ما كادت يوكابد تنتهي من رضاع ابنها الطفل الذي وجدوه بالصندوق، وقد غمرت الفرحة الجميع.. حتى دخل فرعون عابس الوجه، وحوله بعض رجاله، وقد لوثت الدماء أيديهم وملابسهم كأنهم عائدون من مذبحة.. صورة جعلت يوكابد وابنتها ترتجفان، حتى ليخيل إليهما أن فرعون سيكون له شأن آخر غير شأن امرأته مع الطفل!!

سأل فرعون عما حدث، فتلقفته امرأته آسية بوجه غمرته السعادة، وقالت له:

ـ هذا الطفل وجدناه بداخل صندوق.. راسيًا بجوار الشاطئ.. أحضرته إليّ الجواري، فسعدت به وأسميته موسى[1].

وأسرعت إيست نفرت ابنة فرعون والتي أمها آسية، فقالت:

ـ كم هو مشرق الوجه يا أبي.. إنني أحسست برغبة أن يكون لى ابن مثله..

لكن فرعون لم تعجبه كلمات آسية وابنتها، فأغلظ لهما القول، وكأنما أصابته غصة في حلقه، وأسرع إلى الطفل، يريد أن يأخذه من أحضان امرأته، ونظر إلى من حوله وقال:

ـ لا شك أن هذا الطفل هو لإحدى العبرانيات، شاءت أن تتخلص منه.

كان هامان كبير وزراء فرعون حاضرًا، فنادى في الرجال:

ـ اقتلوا هذا الطفل، فلعله هو الذي سيكون سببًا فيما يصيبنا من شر.

أصاب الحزن قلب يوكابد، كيف تستطيع أن ترى ابنها يذبح أمام عينيها على يد وحش، نزعت الرحمة من قلبه، وشاركتها آسية وابنتها إيست نفرت مشاعرها.. يا لفرعون من رجل قاس ظالم.

كان وقع ما أراده فرعون على يوكابد عظيمًا.. حتى كادت تصرخ، لكنها خنقت صرخاتها في صدرها المكلوم، حتى لا يكشف سترها.

(1) موسى أو موشي: المنتشل من بين الشجر والماء.

أدركت آسية أن زوجها سينال الطفل موسى بسوء، فأسرعت تبسط عليه حمايتها، تلصقه بصدرها، وتمسح عليه بيدٍ رقيقة، تمنع عنه الرجال.. تحول بينه وبينهم، وهي تهتف مذعورة في براءة وإصرار:

- ﴿لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: 9].

كان فرعون يدرك أنه ليس في حاجة إلى أولاد، فلديه كثيرون[1]، لكن كلمات آسية له - وكان يحبها كثيرًا - جعلته يعود إلى الصواب، ويمضي، بعد أن انصرف رجاله.

كم كانت سعادة يوكابد وابنتها وهما تنظران إلى رجاله الذين انفضوا من حول موسى.. تركوه، لن يقتلوه، وكم كانت آسية أكثر سعادة بانتصارها على إرادة زوجها الملك.

* * *

عرضت آسية على يوكابد أن تقيم عندها في القصر، ترعى شئون الطفل موسى، حتى يشتد عوده، وقد أحست في يوكابد بعض أمومتها على الطفل موسى، ولعلها أدركت أنها أمه الحقيقية، ولكنها لم تبح بما تسره في نفسها خوفًا على موسى الذي غدا بالنسبة لآسية كواحد من أبنائها.

كم تمنت يوكابد أن تجيب آسية لطلبها، ولكنها وجدت من الخير أن تصحب الطفل إلى دارها، لتقوم على رعايته، ولعل آسية وجدت في هذه الطريقة ما يبعد الطفل عن فرعون الذي أحست بكراهيته له، فرضيت بما أرادته مرضعته يوكابد.

فبينما كانت يوكابد تحتضن طفلها، وتتجه إلى ديارها في أرض جاسان، سمعت الهاتف يهتف بها:

- ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: 13].

وهكذا شاء الله أن يعود الطفل موسى إلى أحضان أمه يوكابد، في دار أبيه عمران.

---

(1) ذكر بعض الرواة أن فرعون لم يكن له أولاد، ليتخذه ولدًا، وهذا خطأ، فقد ذكر المؤرخون أن الفرعون رمسيس الثاني، كان قد أنجب واحدًا وخمسين ولدًا بالإضافة إلى البنات. [المؤلف]

(8)

أصبح موسى واحدًا ممن يعيشون في دار عمران، كان كمن ضل به الطريق حينًا، ثم عاد إلى حيث كان، وكانت يوكابد تقوم على رعاية موسى والعناية به.. يلاعبه أخوه هارون، وتحنو عليه أخته مريم، ويجد عمران فيه الابن الذي شاء الله أن يعيده إلى أحضانه بعد أن كاد يفقده.

وتتابعت السنوات وموسى يكبر، ويشتد عوده، ومن حين لآخر، تأخذ يوكابد موسى إلى قصر فرعون، لتسعد أمه الثانية آسية بالنظر إلى وجهه المشرق.

واستمرت حياة موسى بين قصر فرعون، ودار أبيه في أرض جاسان، ولا شك أن موسى أدرك أنه عبراني، وإن كان الناس يسمونه موسى ابن فرعون.

* * *

لم يذكر القرآن الكريم ما حدث ليوكابد أم موسى بعد ذلك، وكذلك أغفل الكتاب المقدس ذكرها في الأحداث التالية.

ترى.. هل كانت قد توفيت؟ أم لعلها بقيت على قيد الحياة، وحضرت شطرًا من حياة موسى بعد ذلك؟ لعلها كانت حاضرة حينما هرب موسى بعد قتله المصري، ولعلها كانت حاضرة حين عاد موسى رسولاً من عند الله، ولعلها حضرت بعض مواقف موسى مع فرعون والعداء بينهما، ويوم الزينة، ولا ندري هل خرجت مع بني إسرائيل من مصر إلى سيناء؟

كل هذه الأمور لم يتعرض القرآن الكريم لذكرها، وكذلك الكتاب المقدس (العهد القديم)، ولا نملك نحن أن ندعي فيها خبرًا، قد يكون غير حقيقي، فالله وحده أعلم.

ولكن الذي لا شك فيه أن يوكابد بقيت على صفحات التاريخ نموذجًا للأم التي عانت، وتحملت المشاق من أجل ابنها، وأجرى الله على يديها كثيرًا من نعمه، فبقيت صفحات حياتها عظة وعبرة للأمومة الصادقة..

رحمها الله بقدر ما تحملت، وما قدمت.

الفصل التاسع

مـريـم

أخت موسى وهارون عليهما السلام

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: 11، 12].

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ [طه: 40].

(1)

كانت مريم[1] بنت يوكابد طفلة، تلهو مع أترابها من بنات بني إسرائيل، تلاعب أخاها هارون[2]، تدرك ما يعانيه قومها من شظف العيش والسخرة.

كثيرًا ما رأت رجال فرعون يهجمون على دارها، ينتزعون أباها، ليسوقوه، رغم شيخوخته، مكبلاً بأغلال العبودية التي شاءها فرعون لبنى إسرائيل، ولعلها شاهدتهم يومًا، وهم يضربونه؛ ليحثوه على الإسراع في تلبية ما شاءوا له من سخرة، حتى بدا وكأن هذا الأمر أصبح عاديًا.. تراه مريم في كثير من رجال بني إسرائيل.

لكنَّ حدثًا جديدًا طرأ على بيت عمرام، فقد وضعت أمها يوكابد وليدها في هذا الجو المشحون بمذابح رجال فرعون لأطفال بني إسرائيل، وأحست مريم بما تعانيه أمها من خوف على أخيها، ولهفتها عليه من أن يناله رجال فرعون بسيوفهم.

عاشت مريم بنت يوكابد هذا الموقف مع أمها، حتى علمت بما هتف به الهاتف لأمها، أن تضعه في الصندوق، وتلقيه في اليم، وما تملك الابنة وهى ترى مخاوف أمها إلا أن تشجعها على تنفيذ ما طلبه الهاتف منها، ولتفوض أمرها لله، فليس لها الخيرة إلا أن تفعل.

---

(1) ذكر بعض المفسرين والرواة أنه لما اشتد فرعون في ذبح أطفال بني إسرائيل، حتى كاد يقضي عليهم.. ذهب إلى رمسيس الثاني وفد من كبار المصريين، ورجوه أن يخفف عن بني إسرائيل ما يحدث لهم، فأمر رمسيس بذبح الأطفال في عام، ومسامحتهم في عام.
وفي عام المسامحة، كان مولد هارون أخي موسى، بينما ولد موسى في عام الذبح.

(2) حتى لا يلتبس الأمر بين مريم أخت موسى، ومريم أم المسيح عيسى عليه السلام، سنطلق على مريم أخت موسى: مريم بنت عمرام أو بنت يوكابد. [المؤلف]

لعل مريم ابنة يوكابد شاركت أمها الطريق، وهي ذاهبة إلى النجار، ليصنع الصندوق، وتابعته وهو يطليه بالقطران، حتى لا تتسرب إليه المياه.

يا ألله.. أتكون نهاية أخيها طعمة للأسماك الجائعة في النهر؟!

ولا شك أن ابنة يوكابد حضرت إعداد وتجهيز الطفل، حين أرضعته أمه، ووضعت حوله لفائف من البردي، تحميه من تقلبات الصندوق الذي به أخوها فوق صفحة أمواج النهر.

عاشت مريم بنت يوكابد مع أمها أحزانها ومشاعرها ومخاوفها وآمالها، رغم أنها كانت لا تزال صغيرة السن، لم تنضجها السنون، لكن الأحداث التي عاشتها صقلتها، ووسعت مداركها مبكرًا.

ورافقت مريم أمها، وهي ذاهبة بأخيها في الصندوق، حتى ألقته في النهر.. صورة لم تنسها الفتاة مريم طوال حياتها، ومشاعر كثيرة ومتباينة تدق قلبها الصغير.

حتى إذا انتهت يوكابد مما فعلت.. قالت لابنتها:

ـ قُصِّيه، وانظري ما سيحدث له، ثم عودي إليَّ، واصدقيني الخبر، فلعل الله يكون به رحيمًا، فيعيده إلينا كما أخبرني الهاتف.

* * *

مضت الفتاة. تتابع الصندوق، والأمواج تتقاذفه.. حتى استقر على الشاطئ بجوار شجرة ضخمة، فبقيت ابنة يوكابد تنتظر ما سيحدث لأخيها.

(2)

بينما كانت مريم تتابع الصندوق الذي بداخله أخوها، شاهد بعض جواري الملكة الصندوق، وكانت معهن الأميرة إيست نفرت ابنة آسية، فأقبلن إليه، يدفعهن حب الاستطلاع.. تُرى ماذا في هذا الصندوق؟! سؤال كان يتردد في أذهانهن، وهن يحملن الصندوق.

كانت مريم لا تزال متخفية خلف إحدى الأشجار على النهر، تحاول أن تتابع في خُفية ما يحدث، ولدهشتها.. وجدت الجواري يسرعن بالصندوق إلى قصر فرعون. ترى ماذا سيكون أمر أخيها لو رآه فرعون؟ سؤال كان يتردد في خَلَد مريم.

لم تجرؤ مريم على دخول قصر فرعون، لكنها كانت على صداقة غير وثيقة مع إحدى جاريات القصر، فبينما مريم واقفة تراقب الموقف، رأت صاحبتها تهبط درجات سلم القصر، يتبعها كثير من الجواري والخدم.. انطلقن جميعًا خارج القصر، ولما سألت مريم عن سر هؤلاء، علمت من صاحبتها أن الملكة آسية ما كادت تفتح الصندوق الذي وجدته الجواري على الشاطئ، حتى رأت طفلاً جميلاً.. يشع وجهه بالنور حوله، فسعدت به كثيرًا، وحينما أحست بجوعه لأنه كان يمص إصبعه، بعثت بها وبكثير من الجواري إلى سوق المدينة يبحثن عن مرضعه ترضع الطفل.

ربما فكرت مريم أن تسأل صاحبتها عن موقف فرعون من الطفل، ولكنها علمت من خلال حديثها مع صاحبتها أن فرعون لم يعد بعد، ومن أجل ذلك بقيت مريم على مخاوفها مما قد ينال أخاها، فآثرت ألا تعود إلى أمها يوكابد، حتى تدرك مزيدًا من الحقائق وتصدقها بها.

استطاعت مريم ابنة يوكابد، بطريقة أو بأخرى، أن تدخل قصر فرعون، وأن تصعد إلى جناح الملكة آسية الذي كان مزدحمًا، والجميع يتحدثون عن هذا الطفل المشرق الذي وجدته الملكة في الصندوق.

لا شك أن مريم سعدت مما أدركته من إعزاز الملكة آسية للطفل الذي هو أخوها.

شهدت مريم كثيرات من المرضعات، كل منهن تحاول أن تُلْقِم ثديها للطفل، ولكنه رفضهن جميعًا، وبينما كانت الملكة في لهفة عليه.. تمنت أن تستطيع إحدى المرضعات إرضاع الطفل الذي وضح اعتزازها به، حتى إنها أسمته موسى[1].

(1) موسى أو موشى: المنتشل من بين المياه والشجر.

هنالك تألقت عينا مريم بالفرحة والغبطة، وأحست بأنها تستطيع أن تفعل شيئًا من أجل أخيها وأمها، فتقدمت بين التردد والإقدام، وقالت للملكة آسية:

ـ سيدتي: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: 12].

أحست الملكة آسية بصدق الفتاة، وكانت تنظر إلى الطفل نظرة رثاء عليه، لشدة جوعه، فوافقتها على ما أشارت به، وقالت لها:

ـ أسرعي يا فتاة، فائتيني بظئر ترضع هذا الطفل.

من أجل ذلك.. أسرعت مريم ابنة يوكابد إلى دار أمها، تستعجل ذهابها إلى قصر فرعون، وهي واثقة من أن أمها هي التي سترضع أخاها، فما كادت يوكابد تسمع ما تقوله ابنتها مريم، حتى دب في كيانها الذاوي قوة، أعجلتها إلى أن تهيئ نفسها للذهاب إلى قصر فرعون، وآمال عريضة تلتمع في عينيها.

اصطحبت مريم أمها يوكابد إلى قصر فرعون، فما كادت ترى الطفل، حتى ابتسمت في وجهه، فبادلها ابتسامة بابتسامتها، وكأنه يقول لها: لا تخافي.

ما كادت يوكابد تُلْقم الطفل ثديها، حتى التقمه بلهفة ورضع منه حتى شبع، فسعدت آسية سعادة فاضت على كل من حولها.

كانت مريم لا تزال حاضرة حينما أقبل فرعون، وأنكر على امرأته آسية ما فعلت، وأمر رجاله أن يذبحوا الطفل، لكن اعتزاز آسية بموسى، جعل فرعون يتنازل عن أمره، ويرجع عنه، على كره منه.

لا شك أن مريم شاركت أمها جزعها ولهفتها على ابنها حين أمر فرعون رجاله بقتل أخيها، ثم سعدتا حين عفا عنه، تكريمًا لحبيبته الملكة آسية التي لا يستطيع أن يرد لها طلبًا، حبًّا لها.

كم كانت يوكابد سعيدة وهي تحمل ابنها موسى، عائدة به إلى دارها، تشاركها سعادتها ابنتها مريم، فقد عاد أخوها إلى أحضان أمه وأبيه بعد أن كادت تفقده.

(3)

شاركت مريم أمها يوكابد في رعاية أخيها موسى خلال فترة طفولته.. سعيدة بوجوده معها، شاكرة للرب فضله عليها، وكانت مريم تتابع موسى في جولاته بين أرجاء جاسان حيث يعيش قومه العبرانيون وبين قصر فرعون، حيث كانت ترعاه أمه الثانية آسية وابنتها إيست نفرت.

وغدا موسى فتًى يافعًا.. ينعم بالحب لكل من يعرفونه.

كم حزنت مريم حينما انقطع عنها موسى، وانقطعت أخباره عنها، وما كادت تدرى، أو لعلها علمت بعد ذلك أنه هرب من مصر إلى ديار غريبة، بعد حادثة قتله أحد المصريين[1].

* * *

توقف القرآن الكريم عن التعرض لمزيد من أخبار مريم أخت موسى.

لكن العهد القديم تعرض لبعض من حياة أخت موسى، حكى ما كان منها عند خروج بني إسرائيل من مصر، فقد جاء في سفر الخروج:

(فأخذت مريم أخت هارون الدُّف بيدها، وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص، وأجابتهم مريم: (رنمو للرب فإنه قد تعظم).

[الإصحاح 15 من سفر الخروج 20، 21]

وهذا يعني أن الله قدر لها أن تستمر حياتها، حتى عاد موسى من أرض مدين، مصطحبًا معه زوجه وابنيه. عاد إلى مصر رسولاً إلى فرعون، يطلب منه أن يكف عن إيذاء بني إسرائيل، ويسمح لهم بالخروج من مصر.

---

(1) تقول أحداث هذه الواقعة: إن مصريًا تشاجر مع عبراني، كان المصري يطلب من العبراني أن يؤدي له عملاً معينًا، لكن العبراني رفض طلبه، فقامت مشاجرة بين الرجلين، تدخل فيها موسى لفض النزاع بينهما.. واشتد الصراع، فضرب موسى المصري بقبضة يده، فسقط صريعًا، وعلم فرعون بما حدث، فأمر رجاله بالقبض على موسى للقصاص منه، فنصح أحد الناصحين موسى بالهرب من مصر، فهرب موسى إلى أرض مدين.

وقدر الله لها أن تستمر حياتها، فكانت واحدة ممن خرجوا من مصر، وعبروا البحر إلى سينا.

كما ذكر الرواة أنه كانت هناك مصاهرة بين موسى وكالب بن يوقنا[1]، هل كانت هذه المصاهرة زواج كالب من أخت موسى؟ أم كانت مصاهرة من نوع آخر؟ الله وحده أعلم.

لكن الذي لا شك فيه أن مريم أخت موسى كان لها دور هام وبارز في حياة موسى عليه السلام طفلاً.

(1) كالب بن يوقنا: تولى قيادة بني إسرائيل بعد وفاة يوشع بن نون (فتى موسى الذي ذكرت قصته في القرآن الكريم)، وكالب هذا هو أحد الذين اشتركوا في دخول بني إسرائيل أريحا، إحدى المدن الفلسطينية الآن، وحضر القتال بين بني إسرائيل والكنعانيين أصحاب أرض فلسطين، كان هذا بعد أن تاه بنو إسرائيل في البرية أربعين عامًا، بسبب رفضهم القتال ودخول فلسطين.

الفصل العاشر

صافورة

زوج موسى عليه السلام

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: 23].

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: 25 ـ 27].

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: 29].

(1)

كان الجو حارًا.. بل شديد الحرارة، حينما وصل موسى إلى أرض مدين[1]، بعد رحلة طويلة شاقة في أرض سينا.. جبالها ومغاورها.. مِهَادها ووِهَادها.. رمالها وحصبائها وأحجارها، يحاول ألا يلحق به رجال فرعون[2]، حتى نال منه التعب، وأصابه الجوع والظمأ.

ما كاد موسى يصل إلى هذا المكان من مدين، حتى جلس تحت شجرة كبيرة، يستظل بظلالها، لعله يجد عندها نسمة رطبة، تنعش صدره، حتى إذا اطمأن إلى نفسه.. عاجله الغمض، فغفا حينًا.

استيقظ موسى من غمضه، فراح ينتظر فضلاً من الله، يهديه إلى من يطعمه أو يأويه، أو يطفئ ظمأه.

فبينما كان موسى كذلك.. رأى جمعًا كبيرًا من الرعاة، يتزاحمون على بئر ماء (وقيل كان حوض ماء) ليسقوا أغنامهم وماشيتهم.

في ناحية ما.. وقفت فتاتان في ربيع عمرهما، تذودان بأغنامهما حتى لا تختلط بالأخرى، كانتا هادئتين وادعتين تبدو عليهما السكينة والرضا بالأمر الواقع، فأدرك موسى بشفافية نفسه أنهما في حاجة إلى مساعدة منه.

---

(1) أرض مدين: تقع جنوب فلسطين، في المنطقة التي تقع شرق خليج العقبة، أحد ذراعي البحر الأحمر (بحر القلزم)، كان يسكنها قوم من سلالة مدين (مديان) بن إبراهيم عليه السلام من زوجته قنطورة التي تزوجها بعد وفاة زوجتيه سارة وهاجر.

في أرض مدين.. كانت بعثة نبي الله شعيب الذي بعثه الله نبيًا إلى قوم كانوا يعبدون الأصنام، ويطففون الكيل والميزان، لكن القوم كذبوا شعيبًا، فعذبهم الله، أخذتهم الرَّجْفة أو الصاعقة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

(2) كان هروب موسى من مصر، حين قتل أحد المصريين في مشاجرة له مع عبراني، فأمر فرعون بالقبض على موسى، والقصاص منه، فنصح الناصحون موسى بالهرب من مصر.

كانت قدما موسى لا تكادان تحملانه، حينما وصل إليهما، تتثاقل خطواته، وسألهما عن أمرهما، لماذا لا تسقيان أغنامكما؟

قالت الفتاتان[1] على استحياء، وهما تحجبان وجهيهما:

ـ ﴿لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: 23].

هنالك أحس موسى بالواجب يدفعه إلى أن يفعل شيئًا من أجل الفتاتين، فزاحم الرعاة، ورفع حجرًا كبيرًا كان يغطي أحد الأحواض[2] التي تختزن فيها المياه، فسقى أغنام الفتاتين.

في لهفة وامتنان.. شكرت الفتاتان موسى على ما فعل، وما كانتا تملكان إلا أن تشكراه.

(2)

عادت الفتاتان بأغنامهما، بعد أن روت ظمأها إلى دار أبيهما الشيخ.

لا شك أن أفكارًا كثيرة تسارعت في ذهن الفتاتين، وهما في طريق العودة، ولعل أفكارًا أخرى حدثتهما بهما نفساهما.

مسرعتين على غير ما اعتادت الفتاتان ـ عادتا إلى أبيهما الشيخ، فأدهشه تبكيرهما في العودة، ولما سألهما.. أخبرتاه بأمر ذلك الفتى الذي لقيهما، وأجزل لهما المساعدة، وسقى لهما أغنامهما.

(1) ذكرت التوراة في الإصحاح الثاني ـ خروج: أن الشيخ كان له سبع فتيات (وكان لكاهن مدين سبع بنات، فأتين واستقين..) فقرة 16، ولعل هذا صحيح، لكن من كن يسقين الأغنام كانتا اثنتين هما: الكبرى ليا، والصغرى صافورة.

(2) من الدراسة الجغرافية لموقع أرض مدين، نعلم أن هذه المنطقة كان يوجد بها بعض الآبار حيث المياه الجوفية، وكانت هذه المياه تستغل في حاجات السكان الذين يسكنون المنطقة، كما كانت تسقط بعض الأمطار الشتوية (نتيجة لمرور الرياح العكسية على خليج العقبة، فتتحمل ببخار الماء، فتسقط الأمطار) وكانت هذه الأمطار تتجمع في مسيلات، لتصب في أحواض صخرية.. كانت مخازن للمياه في هذا الفصل، تغطى بكتلة من الحجر، حتى لا تتبخر، ويمكن استغلال مياه هذه الأحواض في فصل الجفاف.

كان الشيخ[1] عَلَى غير ولد.. قد اكتهل به العمر، وخبا بريق عينيه.. أقعدته شيخوخته، ووهن جسده عن أن يقوم بما يقوم به الرعاة.

وضع الشيخ يده على جبينه المغضن، لعله أدرك ما يدور في ذهن ابنتيه من آمال، فقال:

ـ فلتعد إليه إحداكما، لتأتي به، لعل لقاء يكون لي معه فيه خير لي ولكما وله.

ربما استحيت ليا الكبرى.. وتقدمت صافورة الصغرى، فتعهدت لأبيها أن تأتي بالفتى الذي ساعدهما.

مضت صافورة، عائدة إلى موسى، وهي تشعر بسعادة تسري في كيانها.

ترى.. هل كانت صافورة، وهي تتجه إلى موسى تدري أنه سيكون لها في حياته، وفي التاريخ صفحات مضيئة؟

عن بعد.. أبصر موسى صافورة، وكان لا يزال جالسًا تحت الشجرة، كأنه ينتظر أحدًا.

في حياء وخفر.. قالت صافورة لموسى:

ـ ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: 25].

صحبت الفتاة صافورة الفتَى موسى إلى دار أبيها، وكل منهما يحاول أن يملأ نفسه أملاً ورجاء في خير له.

* * *

مع الشيخ يثرون.. التقى موسى، فأهلَّ له الشيخ، ورحَّب به، وكان حديث طويل بينهما.. أخبره موسى بما كان من أمره، وما حدث له في مصر.. كان موسى صادقًا في كل روايته، وكان الشيخ متفتحًا لكل ما يسمع، وسعد أن يكون موسى مؤمنًا بدعوة التوحيد.

(1) قال بعض الرواة: إن اسم الشيخ هو نبي الله شعيب، وهذا خطأ، فالمدة بين شعيب وموسى حوالى مائتي عام، والأصح أن هذا الشيخ كان رجلاً صالحًا.. يقال: كان اسمه الكاهن يثرون. وقال البعض: كان ابن أخي شعيب. والله أعلم.

في ناحية ما من دار الشيخ.. انفردت الفتاتان بأبيهما، وقالت صافورة له:

ـ ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: 26].

ابتسم الشيخ في وجه ابنته.. لعله أدرك ما يدور في خلدها، فسألها:

ـ كيف عرفت أنه قوي؟

قالت صافورة تؤكد صدق ما تقول:

ـ لقد كان بطلاً شجاعًا.. قويًّا، حين أزاح حجرًا كبيرًا، كان غطاء على فوهة الحوض، ليسقي لنا أغنامنا.

سعد الشيخ بكلمات ابنته، فسألها:

ـ فكيف عرفت أنه أمين؟

قالت الفتاة، وقد وفدت إلى ذهنها صورة الفتى، وهو يتقدمها في الطريق:

ـ حين ذهبت لأدعوه إليك.. أطرق رأسه حياءً وخجلاً، وطلب مني أن أسير خلفه، وأدله على الطريق، حتى لا ينظر إلى جسمي، لقد كان أمينًا حقًّا.. وما رأيت وما سمعت منه ما ساءني.

عاد الشيخ إلى موسى، واستكملا حديثهما، حدثه موسى عن موقف فرعون ورجاله من قومه، فطمأنه الشيخ، وقال له:

ـ ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: 25].

نزولاً على رأي الفتاتين، وكان الشيخ مقتنعًا بما قالته صافورة، كان على الشيخ أن يكافئ موسى على مساعدته، وأن يتخذه أجيرًا عنده.. يقوم على رعي أغنامه وسقايتها، وكان اتفاق بين الطرفين ـ موسى والشيخ ـ قال الشيخ لموسى:

ـ ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: 27].

ورضي موسى الاتفاق، وباركه الشيخ.

(3)

أصبح موسى واحدًا من أسرة الشيخ يثرون، يشارك أفرادها حياتهم.. يقوم على خدمة الشيخ ورعاية ابنتيه.. تعهد برعي أغنام الشيخ.. طعامها وشرابها، يحدو عليها.. سعيدًا بفضل الله عليه، وما هيأه له من استقرار وأمن في أرض غريبة.

لا شك أن موسى كان يدفعه الحنين إلى مصر.. كثيرًا ما حاول أن يتعرف على أخبار قومه من رجال التجارة الذين كانوا يجوبون بقوافلهم البادية ما بين مكة وبصرى بالشام، أو إلى مصر.. يحاول أن يتنطس أخبار أخيه هارون وأمه وأخته.. فقد طالت به غربته!!

ترى.. ماذا كان موقف فرعون ورجاله منهم؟ وهل بقي فرعون على تعذيب بني إسرائيل؟ ربما وصلت إلى موسى أخبار وفاة رمسيس الثاني، وتولي ابنه مرنبتاح الذي هو أخو إيست نفرت التي كانت لموسى بمثابة أمه، فقد شاركت أمها آسية في رعايته.

وعلم موسى أن مرنبتاح خفف قيود العبودية والذل عن قومه.. لكن موسى بقي على عهده والاتفاق الذي أبرمه مع الشيخ يثرون.

عشر سنوات[1] مضت، أوفى الأجلين اللذين تعاهد عليهما موسى، وتزوج موسى صافورة ابنة الشيخ، فأنجبا ولدين هما جرشون[2] وعازر.

كانت صافورة مثالاً للزوجة ناضجة العقل والحكمة.. أدت واجبها على خير ما تكون الحياة الزوجية والأمومة، وشاركت موسى مشاعره، فاستطاعت أن تهون عليه مشقة غربة الديار، والبعد عن الأهل والرفاق.

---

(1) مما يروى أن الرسول ﷺ سئل: أي الأجلين قضى موسى؟ فقال ﷺ: «أبرهما وأوفاهما». رواه عتبة بن المنذر السلمي. [قصص الأنبياء للشيخ النجار ص 202].

(2) جرشون: تعني أنه ولد في أرض غريبة. [الإصحاح الثاني - خروج فقرة 22].

حتى إذا علم موسى أن الفرعون الذي كان يريد القصاص منه قد انتهت به الحياة، وكان موسى قد وفى العهد الذي تعاهد عليه مع الشيخ، أعلن موسى لصهره رغبته في العودة إلى مصر.

ربما كان موسى يريد الزيارة، أو لعله كان يريد أن يمضي بقية حياته في مصر.. لكن القدر كانت له مشيئة أخرى، فرضها على موسى.

(4)

منح الشيخ موسى بعضًا من أغنامه، يقوم على رعايتها، وهو في طريق عودته من أرض مدين إلى مصر.. حيث الطريق طويل وشاقٌّ.

ودَّع الشيخ موسى وزوجته صافورة وابنيهما جرشون وعازر، داعين الله أن يوفر الأمن والسلامة لهم في مصر، لا شك أن الشيخ كان حزينًا لمفارقة ابنته وحفيديه، ولكنه كان مطمئنًّا إلى إيمان موسى، فهو أحد المؤمنين بدعوة التوحيد، دعوة إبراهيم ويعقوب، ولكن الشيخ لم يستطع أن يمسك مقلتيه والدموع تنحدر على وجهه الذي خدَّدته السنون والأيام خلال عمره الطويل.

مضى موسى وأهله من مدين، حيث اتجهوا إلى سيناء، فما كان لهم إلا طريق سيناء يسلكونه إلى مصر.

لم يكن موسى يدرك مسار الطريق، ولا سبل المرور في سيناء، فقد عبرها من قبل، ولم يدرك تفاصيلها، لأنه كان هاربًا وما يرى على امتداد البصر إلا حشائش وأحراشًا وجبالاً، ومن أجل هذا تاه موسى وأهله في الطريق!

كان الوقت شتاءً ليلاً.. حين غرق الكون في ظلام.. يكتنفه البرد، فأحس موسى وأهله بلسعات البرد القارسة، وقسوة الريح.. أخرج موسى زنده، وقدحه، لكن زنده كان صلدًا، فلم يور نارًا!

كم تمنت صافورة لو تستطيع أن تفعل شيئًا.. تحمي ابنيها من لسعات البرد.

مضى موسى بأهله، لعله يعثر على قبيلة في المنطقة يجد عندها نارًا، دون أن يدري أي طريق يسير فيه، وأين ينتهي به السير.. يتقدم خطوات، ويتقهقر أخرى..

فبينما موسى وأهله ماضين في الطريق، وقد غلب عليهم البرد، رأى موسى عن بعد نارًا، فقال لأهله:

ـ امكثوا هنا ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: 7].

فما كان لصافورة زوج موسى إلا أن تلبي نصيحة زوجها، وتلوذ بربها، فاحتضنت ولديها، تحاول أن تحميهما، وتمنع عنهما غائلة البرد، في انتظار عودة أبيهما.. لعله يأتيهم بجذوة من نار، يستدفئون بها جميعًا، حتى ينجلي الصبح، فتشرق الشمس، ويستأنفوا المسير.

مضى موسى يتابع النار التي رآها عن بُعد.. تلهث أنفاسه، حتى إذا بلغها.. وجد شجرة[1] خضراء، كثيفة أوراقها وأغصانها، والنار مشتعلة فيها.. لا تستطيع خضرة الشجرة أن تمنع اشتعال النار فيها، ولا تستطيع النار أن تحرقها!!

تردد موسى قليلاً.. دنا، ثم استأخر، وقد لحقه الخوف، وأصابته الدهشة، وحاول أن يتكلم، فعجز لسانه[2]، فبينما هو كذلك، جاءه صوت من الشجرة، يناديه:

ـ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: 12].

وما يملك موسى إلا أن يفعل ما أمره الله، خلع حذاءه، فما كاد يفعل، حتى سمع نداء الله له أن جعل له معجزتين: عصاه التي تتحول إلى ثعبان، ويده التي يخرجها، فتكون بيضاء ناصعة.. تنير المكان حوله!!

فبينما كان موسى في دهشة مما يسمع ويرى، سمع ربه يناديه:

ـ ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: 24].

ـ ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه: 42].

لقد كان موسى يريد العودة إلى مصر، وكفاه أن يكون هذا أمره فقط، لكن الله بعثه نبيًا، ليطلب من فرعون أن يكف عن إيذاء بني إسرائيل، وليخلص قومه مما

(1) يقال إنها كانت من أشجار العوسج.
(2) كان موسى في المكان الذي تقع فيه الآن مدينة الطور التي تطل على شرق خليج السويس، هي الآن عاصمة محافظة سيناء الجنوبية. راجع الخريطة.

يقع عليهم من سخرة وتعذيب، ليعبدوا الله، رب إبراهيم ويعقوب.. بعيدًا عن عبادة فرعون وآلهته.

لا شك أنها مهمة شاقة على موسى أن يتحملها وحده، ولا شك أن امرأته صافورة سيكون لها نصيب من الصبر على ما سيقع له في سبيل تحقيق الدين الذي يدعو الناس إليه، وعليها أن تصبر.

آب موسى إلى نفسه من الدهشة.

* * *

عاد موسى إلى أهله.. زوجه وابنيه.. ليبلغهم ما أراده الله منه، وأن عليه أن يؤدى ما كلفه به الله، تشاركه زوجه صافورة التي شجعته، وآمنت بدعوته، فقد كانت دعوة موسى امتدادًا لدعوة إبراهيم التي كان يعتنقها أبوها.

(5)

لسنا بصدد الحديث عن قصة موسى، وما حدث بينه وبين فرعون الذي رفض الإيمان بدعوته، لكن الذي لا شك فيه أن صافورة عاصرت تلك الأحداث، وكثيرًا ما عاد إليها زوجها موسى، وهو يشعر بمشاقٍّ المهمة التي ألقاها الله على عاتقه.

عاشت صافورة مع موسى يوم التقى بسحرة فرعون.. يوم الزينة، وشاهدت في إكبار وإعزاز زوجها وهو يلقي بعصاه، فصارت ثعبانًا ضخمًا.. التهم كل ثعابين وحيات السحرة، وآمن السحرة بإلهه، فكانت كبوة لفرعون عاشها.

وعاشت صافورة المعجزات التي أجراها الله على يد زوجها ـ نبيه موسى ـ وما أنزله الله من عقاب لفرعون ومن تشيع له.

لا شك أن صافورة كانت تخشى على زوجها من بطش فرعون ورجاله الذين حاولوا قتله.. لكن الله كان معه، يحرسه ويحميه ويدفع عنه كيد الكائدين.

أحداث كثيرة عاشتها صافورة ابنة الشيخ يثرون، وإحدى بنات مدين.. عاشتها في مصر.. هكذا كانت مشيئة الله أن يكون لها في التاريخ صفحة مجد وفخر، دون غيرها من أخواتها، أو أترابها من بنات مدين الأخريات.

لا شك أن صافورة كانت سعيدة، حين هيأ الله لبني إسرائيل طريقًا ساروا عليه إلى سيناء، وأغرق فرعون.

ولا شك أن صافورة كانت واحدة ممن عبروا البحر، واتجهوا إلى سيناء، وإن كنا لا ندري بعد ذلك من أمرها شيئًا.

* * *

ليس لدينا ما نضيفه إلى تاريخ صافورة، فيكفيها فخرًا أنها وقفت بجانب زوجها موسى في غربته.. تخفف عنه الوحدة، وتسري عنه آلام الغربة والخوف، ثم كانت له عونًا وصاحبًا في كل مراحل كفاحه من أجل تحقيق أمر الله له.

رحم الله صافورة زوجة موسى بقدر ما قدمت لزوجها ولقومها ولأبيها ولابنيها من خير وعطاء.

الفصل الحادي عشر

آسية امرأة فرعون

وأمومتها لموسى عليه السلام

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: 11].

(1)

كانت الأمور تسير في مصر على خير ما يحب أهلها، فقد استعاد رجالها حكمها من الهكسوس.. أعدائهم الأجانب الذين سيطروا على مقاليد الحكم فيها حينًا، حتى استطاع أحمس.. أحد قادة مصر، وأبطالها الشجعان، ورجالها البواسل أن يطردوا الأعداء، ويطهروا وطنهم من شرهم، وليسود الأمان والطمأنينة بين ربوع مصر، وتتسع أملاكها في الجنوب والشمال، وترتفع رايتها في الآفاق عالية خفاقة.

كان يحكم مصر في تلك الحقبة من تاريخها الفرعون رمسيس الثاني، أحد الأبطال العظام في تاريخ مصر القديم.

كانت إيست نفرت (آسية) إحدى زوجات رمسيس التي تتمتع عنده بحظوة ومكانة، لا ينالها غيرها من الزوجات الأخريات.

ولئن سعد رمسيس الثاني بحكمه، واتساع دولته.. فقد كان يؤرقه ما نبأه به أحد العرافين من رجال كهنة دينه بأنه سيخرج من بني إسرائيل الذين يسكنون بأرض جاسان من سيكون سببًا في هلاكه وضياع ملكه.

ولأن بني إسرائيل كان لهم دور كبير في ممالأة الهكسوس الأعداء، وكانوا أشبه بجواسيس لهم، لذلك أمر الفرعون رمسيس الثاني بذبح كل من يولد من أطفال بني إسرائيل الذكور، حتى يضمن القضاء على هذا الطفل[1] الذي سيكون سببًا في هلاكه وضياع ملكه كما أخبره بذلك أحد كهنته.

* * *

(1) كان هذا الطفل هو ابن يوكابد وعمران من بني إسرائيل، خافت عليه أمه أن يذبحه رجال فرعون، مثل غيره من أطفال بني إسرائيل، فأوحى الله إليها أن تصنع صندوقًا، وتضعه فيه، وتلقيه في اليم، فرسا الصندوق بجوار قصر فرعون.

ذات يوم..

كانت آسية في جناح قصر فرعون.. جناحها المخصص لها، كواحدة من زوجاته، كان القصر مطلاً على أحد فروع نهر النيل في مدينة برر عمسيس، فبينما هي كذلك، أقبلت إليها ابنتها إيست نفرت مع بعض من جواريها، يحملن صندوقًا وجدنه قرب إحدى الأشجار عند ساحل النهر..

ما كادت الملكة آسية تفتح الصندوق.. حتى رأت طفلاً جميلاً، أشرقت به نفسها، وألقى الله محبته في قلبها، كان نور وضاء يشع من وجهه الذي بدا جوعان.. يمص إصبعه.

أحست آسية وهي تنظر إلى وجه الطفل بفيض من السعادة يملأ كيانها، فأخذت على عاتقها مهمة رعايته والحفاظ على حياته.

بعثت آسية بعض خدمها وجواريها يبحثن عن مرضعة له، فأقبلت إلى القصر كثيرات من المرضعات، ولكن الطفل رفض الرضاع منهن جميعًا.

كانت أخت الطفل حاضرة الموقف، هكذا شاء الله لحكمة يعلمها، فعرضت على الملكة أن تأتي لها بمن تكفله وترعاه، ووافقت الملكة، فعادت الفتاة إلى أمها وأحضرتها، فسعدت الملكة، حين التقم الطفل ثدي المرأة المرضعة، ورضع منها، وما كانت الملكة آسية تدري أنها أمه الحقيقية.

كانت آسية تدرك ما قد ينال الطفل من شر على يد زوجها الفرعون، ولذلك نذرت نفسها أن تعمل كل ما في وسعها للحفاظ على الطفل الذي أسمته موسى، مهما كلفها هذا من جهد، ومهما عارضها زوجها الفرعون.

بعد حين أقبل الفرعون رمسيس الثاني، فإذا امرأته آسية تحتضن في حنان وأمومة طفلاً، فأدهشه ما رأى.

وعلم رمسيس بقصة الطفل الذي عثرت عليه الجواري، والذي تحتضنه الملكة، فأدرك أنه لإحدى العبرانيات التي أحست بما سيلقاه على يد رجاله، فألقت به في مياه النهر.

سرعان ما هتف رمسيس برجاله:

ـ اذبحوا هذا الطفل.. اقتلوه.. إنه واحد من العبرانيين، لا يفلت منكم.

حاول الرجال أن ينتزعوا الطفل من صدر الملكة آسية، لكنها كانت متمسكة به، تحول بينه وبين الرجال الذين ارتدوا على أدبارهم، وهم ينظرون إلى سيدهم الملك، لا يملكون أن يواجهوا الملكة، فقد كانوا يعلمون مكانتها عنده.

في لهفة واستعطاف، قالت آسية لفرعون ورجاله:

ـ ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: 9].

حاول فرعون أن يصرف امرأته عن رأيها، لكنها كانت مصرة على الإبقاء على حياة الطفل.. هكذا شاء الله له أن يعيش.

وما يملك فرعون إلا أن يستجيب لرغبة امرأته على كره منه.

لذلك.. حينما عرضت يوكابد أم الطفل الحقيقية على الملكة آسية أن تأخذ الطفل معها لترعاه.. وافقت الملكة على ذلك، كي تحول بين الطفل وفرعون ورجاله، من أجل الحفاظ على حياته، وكفاها سعادة أنها خلصته من أيدي الذباحين.

(2)

اعتادت يوكابد أن تزور الملكة ومعها طفلها موسى من حين لآخر، لتطمئنها عليه.. هكذا كان العهد بينهما.

ذات يوم.. كان موسى قد بلغ الثانية من عمره.

دخل فرعون جناح الملكة آسية.. وكان موسى معها.

ما كاد موسى يرى فرعون، حتى أحس برهبة منه، وما كاد فرعون يرى موسى، حتى أحس بكراهية وعداوة نحوه، فركله بقدمه، ليبعده عن طريقه، مما ضاعف من خوف موسى، وكراهيته لفرعون.

هدأ فرعون في فراشه.. فما كاد يستغرق في نومه حتى دخل موسى إلى حجرة الملك، وجذب بضع شعيرات من لحيته، كأنما أراد أن يرد له إساءته.

استيقظ فرعون فزعًا، ليرى موسى أمامه، فغلبت عليه قسوته، وأراد أن يذبحه.

لم تتمالك آسية نفسها مما أصابها من خوف على موسى.. حاولت أن تصرف فرعون عما أراد.. وأن تمنح لموسى الحياة التي يصر فرعون على أن ينتزعها منه.. طيَّبت آسية خاطر فرعون بكلمات تدل على أن موسى ما يزال طفلاً، لا يدرك حقيقة ما فعله.

وحتى تؤكد آسية صدق ما تقول، وحتى تصرف فرعون عن ذبح موسى.. استدعت إحدى الجواري، وبعثتها لإحضار تمرة وجذوة من نار، كانت ما تزال متقدة.. ووضعت الاثنتين أمام موسى، ليختار واحدة منهما.

وشاء الله أن يمد موسى يده إلى جذوة النار المتقدة، ويأخذها بيده، ليضعها عند فمه، كأنما يحاول أن يأكلها!!

وهكذا استطاعت الملكة آسية بحكمتها أن تبرهن لزوجها الفرعون على أن موسى لا يزال طفلاً، لا يدرك ما يفعل.

وشاء الله أن يهدي فرعون، ويصرفه عن ذبح الطفل موسى..

(3)

تتابعت الأيام، وموسى يكبر في قصر فرعون، وكأنما رضي فرعون بالأمر الواقع، وكانت الملكة آسية سعيدة بموسى وهو يتفتح على أمور الحياة في مصر.. تشاركها سعادتها يوكابد.. أم موسى الحقيقية.

كانت آسية سعيدة بموسى، سعادة الأم بابنها، فهي التي صنعته على يديها.. أليست هي التي كانت سببًا في خلاصه من سكين رجال فرعون عدة مرات؟! أبقت على حياته، وربَّته، وأحاطته بكل رعايتها كواحد من أبنائها.

ثم كان ما كان من أمر موسى، حين افتقدته أمه آسية أكثر من عشر سنوات، كان خلالها يعيش في أرض مدين[1]. ربما علمت آسية بالأرض التي ذهب إليها

(1) كان ذلك بعد قتل موسى للمصري الذي كان يتشاجر مع عبراني.

موسى، فرارًا من فرعون ورجاله، ومن أجل ذلك، حين مات زوجها رمسيس الثاني الذي كان يطلب موسى للقصاص منه، تمنَّت آسية أن يعود موسى إلى مصر، وأن تشفع له عند ابنها مرنبتاح الذي تولى حكم مصر بعد وفاة أبيه، لكن الأيام طالت بموسى في غربته.

أكثر من عشر سنوات مضت.. انتهى فيها عصر رمسيس الثاني وابنه مرنبتاح، ليتولى حكم مصر سيتى الثاني الذي عرف بقسوته وكراهيته لبني إسرائيل، فقرر موسى العودة إلى مصر.

* * *

ثم كان ذات يوم..

عند عودة موسى وهو في سيناء، بعثه الله رسولاً إلى فرعون.

كان موسى يدرك موقف أمه الثانية آسية منه، واثقًا من برِّهَا وعطفها وحبها له.. لذلك، ما كاد موسى يعود إلى مصر، وقبل أن يلتقي فرعون، ليدعوه إلى عبادة الله وحده، حتى استطاع بطريقة ما أن يدخل قصر الفرعون سيتي.. ساعده على ذلك أن الحرس كانوا يعرفونه، وكانوا يسمونه موسى ابن فرعون.. دخل موسى قصر فرعون، واتجه إلى حيث كانت تعيش أمه الثانية آسية، فسلم عليها، وشكرها على حسن صنيعها، وأخبرها أن الله بعثه رسولاً[1] إلى فرعون، ليدعوه إلى عبادة الله الواحد، وأن يدعَ الألوهية التي يدعيها، فالله وحده الخالق لهذا الإنسان والكون وكل ما فيه.

آمنت آسية برب موسى، فقد كانت تدرك سوء ما يدعيه فرعون من ألوهيته، ولم تنس آسية وهي تودع موسى أن تنصحه بأن يكون حذرًا مع فرعون الذي عرف بقسوته وجبروته، فكانت نصيحة آسية لموسى نورًا أضاء له الحقيقة، وكيفية التعامل مع الفرعون.

لا يهمنا أن نتابع أحداث لقاء موسى وأخيه هارون بفرعون، الذي رفض دعوة موسى، وما حدث من نقاش بينهما، والمعجزتين اللتين أظهرهما موسى: العصا

(1) بعث الله موسى رسولاً، حينما كان عائدًا من أرض مدين إلى مصر، ففي منطقة الطور، ناداه ربه، وبعثه رسولاً إلى فرعون، ليدعوه إلى عبادة الله وحده، وليسمح لبني إسرائيل بالخروج، ليعبدوا الله، لكن فرعون رفض دعوة موسى وخروج بني إسرائيل من مصر.

التي تتحول إلى حية تسعى، ويده التي يدخلها في جيبه، ثم يخرجها لتكون بيضاء، تنير ما حولها.

يهمنا أن نذكر هنا موقف آسية التي آمنت بإله موسى، وكم كانت سعيدة يوم انتصر على سحرة فرعون الذين أدركوا الحقيقة، فآمنوا بدعوة موسى، رغم تهديد فرعون لهم بالقتل والصلب.

في هذا اليوم.. يوم الزينة الذي انتصر فيه موسى على سحرة فرعون.. أعلنت آسية لشعبها إيمانها برب موسى، وكفرها بألوهية فرعون.

ولأن فرعون كان يدرك دور آسية في الإبقاء على حياة موسى.. الذي وضح عداؤه لفرعون.. فقد أدرك فرعون أن موسى الذي ربته جدته آسية على كره من جده رمسيس الثاني هو العبراني الذي تنبأ به الكهنة أنه سيكون سببًا في هلاك فرعون وضياع ملكه.

وإذا كان فرعون قد عادى موسى، فقد كان أكثر عداء لآسية: سجنها في حجرة ضيقة، وحجبها، وحجب عنها كل من بالقصر. وتفنن في إيذائها، حتى إنه - بعد أن أعلنت إيمانها - منع عنها الطعام والشراب إلا بقدر ما يقيم حياتها!! ناسيًا أنها ملكة سابقة، وأنها جدته لأبيه!!

وما تملك آسية وهي في محنتها وعذابها إلا أن تدعو ربها:

﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: 11].

وحقق الله دعوتها، فجعلها إحدى سيدات نساء الجنة.. أكد هذا رسول الله ﷺ في حديث له.. قال فيه:

- **«حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون»**[1].

* * *

رحم الله آسية امرأة فرعون بقدر إيمانها بالله، وكفرها بألوهية زوجها وبقدر ما تحملت من مشاق، وجاهدت من أجل الحفاظ على حياة موسى.. أحد رسل الله.. والتى كانت له ينبوع حنان وعطف ورعاية.

(1) أخرجه الترمذي 3981، وأحمد 3/135، والحاكم 3/1.

الفصل الثاني عشر

بلقيس ملكة سبأ

وسليمان عليه السلام

﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: 23 ـ 24].

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: 29 ـ 31].

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل: 41 ـ 42].

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾ [النمل: 44].

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: 44].

(1)

أشرقت الشمس على اليمن ـ كعادتها ـ في ذلك الصباح، فتطايرت أمام نورها ذرات ظلام الليل، وأسفر الصبح، وولج نور الشمس إلى فراش الملكة بلقيس[1] ملكة سبأ[2] حيث كانت تعيش في قصرها في مدينة مأرب[3] عاصمتها، فهرعت تغادر فراشها إلى الفضاء المترامي حول قصرها، تتابع قرص الشمس.. إلهها الذي تعبده.. يتبعها رجالها وكهنة دينها وجميع أفراد شعبها.. ينظرون في مقلة الشمس، ويسجدون لها، ويترنمون بأناشيد الشكر والعبادة لها.. يسألونها البركة والسلام والخير.

هكذا اعتاد أهل سبأ أن يفعلوا كل صباح.. تشاركهم بلقيس ملكتهم عبادتهم وسجودهم.

فى تلك الفترة من التاريخ، كان يعيش نبي الله سليمان[4].. تولى الحكم بعد أبيه داود عليه السلام واتخذ مدينة أورشليم عاصمة ملكه.

---

(1) هي بلقيس بنت السيرح (الهدهاد) وقيل شرحبيل بن حدن، وقال الثعلبي كان اسمها بلعمة. تنتسب إلى سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان، ويقال كانت أمها جنيّة. بعد موت أبيها تولى حكم مملكة سبأ رجل عرف بالظلم والقسوة والبطش، فتزوجته بلقيس، وسقته خمرًا كثيرًا، وقتلته، وتولت حكم مملكة سبأ.
[البداية والنهاية، ج 2 ص393]

(2) مملكة سبأ: إحدى الممالك في اليمن (معين وسبأ وحمير) من أشهر ملوكها الملك سبأ الذي بني سد مأرب، ذلك السد الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، وكان سببًا في ازدهار الحياة في اليمن وحضارتها ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ﴾ [سبأ 15].
وقد تهدم هذا السد بسبب ابتعاد الناس عن عبادة الله ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ [سبأ: 16].

(3) مأرب: مدينة قديمة كانت عاصمة مملكة سبأ، تقع شرق صنعاء، اشتهرت ببناء سد عندها، خربه سيل العرم بين سنة 543م، سنة 570م، فتفرق سكانها. [المنجد ص 470]

(4) هو سليمان بن داود بن إيشا بن عويبد بن عامر، ينتهي نسبه إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ورد اسمه في القرآن الكريم 17 مرة، أكثرها في سورتي: النمل والأنبياء، كما ذكر اسمه في العهد القديم عدة مرات في سفر الملوك الأول (الإصحاحات 2 ـ 13).
ورث سليمان الملك عن أبيه داود، وبعثه الله رسولاً إلى بني إسرائيل، فجمع بين النبوة والملك، كانت فترة حكمه من سنة 989 ق.م إلى سنة 931 ق.م. اصطفاه الله بكثير من نعمه: علمه لغة التخاطب مع الطير، وأسال له عين القطر (النحاس المذاب) وسخر له الريح، والجن يعملون له ما يشاء، في عهده اتسعت دولته، وهو الذي بنى الهيكل في أورشليم لعبادة الله، بعده انقسمت دولته إلى قسمين: أحدهما في الشمال، والآخر في الجنوب.

شاء الله أن يكون سليمان عليه السلام في ذلك اليوم في رحلة بعيدة عن عاصمة ملكه.. لعله في طريقه إلى مكة للحج كما اعتاد كل عام.. بصحبة بعض رجال جيشه، والطيور التي يعرف كيف يتخاطب معها، ومنها الهدهد الذي اشتهر بمقدرته على التعرف على مناطق المياه الجوفية في باطن الأرض، ليدل رجال سيده عليها، فيحفروا، حتى تنبع المياه، يستقون منها ما شاءوا.

ابتعد الهدهد في ذلك اليوم عن سليمان ورجاله، وطار بجناحيه في فضاء الله الواسع.. لعله ضل طريقه، واتجه نحو اليمن في الجنوب لمشيئة شاءها الله.

فبينما الهدهد يحلق بجناحيه فوق مدينة مأرب.. رأى جمعًا كبيرًا من الناس تتقدمهم امرأة.. من خلال التاج الذي يعلو رأسها، عرف الهدهد أنها ملكتهم.. يحيط بها حشد كبير من رجال الملكة والكهنة، كانوا جميعًا ينظرون إلى الشمس ثم يسجدون، يتخذونها إلهًا من دون الله الواحد، الإله الذي يعرفه الهدهد هو أنه خالق كل شيء، مدبر أموره حتى الشمس.

لا شك أن الهدهد أصابته الدهشة، فراح يحلق في السماء فوق قصر أدرك أنه قصر الملكة، وسمع من يسميها باسمها، ودخل القصر، فرأى عرشها العظيم.. آية في الجمال، وما يتحلى به من الجواهر الثمينة!!

(2)

عاد الهدهد إلى سيده سليمان، وصورة ما رآه في سبأ لا تفارق خياله!![1].

كان سليمان قد سأل عن الهدهد، فلم يجده، فتوعده بالعقاب، وقال:

ـ ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: 21].

وأقبل الهدهد إلى سيده سليمان يرتجف، فقد أحس أنه أخطأ بابتعاده عنه، ولكنه لم يهرب، فإن لديه أخبارًا هي جديدة على سليمان، وأراد الهدهد أن يبرئ نفسه من الخطأ، حتى لا يعاقب، فقال لسليمان بأدب وتهذيب:

(1) هذا مما يؤكد أن الهدهد في أول زيارة لمملكة سبأ، طار حول قصر بلقيس، ودخل فيه، ورأى عرشها.

ـ ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: 22 ـ 24].

كانت مفاجأة لسليمان الذي يدعو الناس إلى دين التوحيد، بعيدًا عن عبادة النجوم والكواكب والأصنام.. يدعوهم إلى عبادة الله الواحد.. إله أجداده إبراهيم وإسحاق ويعقوب، الدين الذي قامت عليه أركان دعوة نبي الله موسى عليه السلام؛ أنزل الله تعاليمه مكتوبة على ألواح، تلقاها موسى ذات يوم وهو عند جبل حوريب[1].

دهش سليمان صاحب الدولة الواسعة العريضة التي تمتد في منطقة كبيرة من فلسطين والشام، كيف لا يعرف دولة سبأ هذه التي تقع في الجنوب من بلاد اليمن؟!

ألقى الهدهد بالأخبار على سليمان عن مملكة سبأ، وكأنه يدعوه أن يذهب إلى هناك، وينشر دعوة موسى.

وتمضي الأحداث متلاحقة سريعة.

بعث سليمان الهدهد بكتاب إلى بلقيس، ملكة سبأ، ليكون هذا الكتاب بداية العلاقة بينهما، قال سليمان للهدهد:

ـ ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: 28].

ونجح الهدهد في دخول قصر بلقيس، رغم إحكام نوافذه، دخل عليها، وهي نائمة في فراشها، فألقى على صدرها كتاب سليمان إليها..

وانتظر الهدهد، ليرى ماذا تفعل بلقيس.

استيقظت بلقيس من نومها مع إشراقة الشمس كما اعتادت، وتحسست صدرها، فإذا برسالة.. ترى ما فيها؟

غلبتها الدهشة على الخوف، وهي تفكر.. من الذي استطاع أن يدخل القصر، ويلقي عليها هذه الرسالة، وأبواب ونوافذ قصرها محكمة، وماذا تعني هذه

(1) حوريب: أحد جبال سيناء.. يعرف الآن باسم جبل موسى.

الرسالة؟ بماذا تخبرها، أو تقول لها؟ ومن الذي بعث بها إليها؟ أسئلة كثيرة تزاحمت في ذهن بلقيس!!

أسرعت بلقيس تطلب اجتماع رجالها، وقادة جيشها، وكهنة دينها، وقالت لهم، والموقف يؤرقها:

ـ هذا كتاب أُلقي إليّ ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: 30 ـ 31].

كان سليمان واضحًا فيما يطلبه من بلقيس، أن تأتيه هي ورجالها مسلمين بدين اللهالواحد.

ومعنى هذا أن بلقيس ورجالها يتركون عبادة الشمس التي كان يعبدها من قبلهم آباؤهم وأجدادهم، ليعبدوا الإله الذي يعبده سليمان والذي لا يعرفون عنه شيئًا.

* * *

لسنا بصدد الحديث عما دار بين بلقيس ورجال دولتها، وكيف عارضوا مطالب سليمان، وأعلنوا استعدادهم لقتاله، ثم ما كان من حكمة بلقيس التي رفضت القتال لما له من آثار سيئة، وبعثت بعض رجالها بهدايا ثمينة إلى سليمان، لعله يرجع عما يطلبه، ويقيم بينه وبين سبأ روابط السلام، وليبقى أهل سبأ على دينهم.

لكن سليمان رفض هدايا بلقيس، وقال لكبير رجالها:

ـ ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاَ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: 36 ـ 37].

(3)

بدأ خط العلاقة بين بلقيس وسليمان يتجه اتجاهًا آخر، ستتغير به ولا شك الأحداث بينهما.

أحست بلقيس أن من الخير لها أن تلتقي بسليمان، فقد علمت عنه أخبارًا كثيرة، علمت أنه نبي.. الريح مسخرة له، تحمله حيث يشاء، أنعم الله عليه بنعم وأموال كثيرة، يملك من القوة والسلطان ما تعجز هي عن مواجهته، ولا شك أن

الرجال الذين بعثتهم من قبل بهداياها قد حدثوها عن صور الحضارة والمدنية، ومظاهر الثراء التي رأوها في أورشليم، حدثوها عن الجن الذين يأتمرون بأمر سليمان، يبنون له الدور والقصور ويعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل، ومنهم من يغوص في البحار.

لذلك قررت بلقيس[1] أن تزور سليمان في أورشليم، وأخذت معها كثيرًا من الهدايا من الذهب والطيب والأحجار الكريمة وسافرت، متجهة إلى أورشليم[2].

(4)

كان الهدهد قد وصف لسيده سليمان عرش بلقيس.. جماله، والحلي والأحجار الكريمة التي تزينه: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: 23].

حينما علم سليمان أن بلقيس قادمة إليه، فكر في طريقة تجعل الدهشة تصيبها، لتدرك مكانته، وما حباه الله من فيوضات نعمائه عليه، وما أسبغ الله عليه من إمكانات لم يجعلها لغيره من الأنبياء.

أراد سليمان أن يعد لبلقيس مفاجأة، تنتظرها حين تأتي إلى أورشليم، أن يحضر لها عرشها الذي كان في مدينة مأرب عاصمة سبأ.

---

(1) وردت قصة ملكة سبأ (دون ذكر اسمها في العهد القديم ودون تفاصيل كثيرة، فلم ترد فيها قصة الهدهد، وما رآه، ولا الرسالة التي بعث بها سليمان إلى بلقيس، ولا حكاية العرش الذي أحضره أحد رجال سليمان المؤمنين من سبأ إلى أورشليم، وكل ما جاء في العهد القديم:
(وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان، فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم حاملة أطيابًا وذهبًا وحجارة كريمة، فلما رأت ملكة سبأ حكمة سليمان والبيت الذي بناه، وطعام مائدته، ومجلس عبيده وخدامه، قالت له: صحيحًا كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وحكمتك ولم أصدق حتى جئت وأبصرت عيناي، زدت حكمة وصلاحًا، ليكن مباركًا الرب إلهك الذي سر بك وجعلك على كرسي إسرائيل، وأعطت الملك ذهبًا وأطيابًا كثيرة وحجارة كريمةوأعطى الملك سليمان لملكة سبأ مشتهاها، فانصرفت وذهبت إلى أرضها هي وعبيدها).

(2) أورشليم (أورسالم): كانت تعرف منذ الألف الثالثة قبل الميلاد باسم مدينة يبوس، عاصمة اليبوسيين (فرع من الكنعانيين الذين ينتسبون إلى كنعان بن نوح) اتخذها داود عليه السلام ومن بعده ابنه سليمان عاصمة دولتهما، وأسمياها أورشليم، لما دخل الرومان فلسطين أطلقوا على هذه المدينة اسم إيليا.. أسماها العرب القدس، أو بيت المقدس، هي الآن عاصمة الدولة الفلسطينية.

كانت المسافة بين مأرب حيث يوجد قصر بلقيس وفيه عرشها، وأورشليم حيث يعيش سليمان، مسافة تقدر بأكثر من ألفي كيلو متر.

فبعد أن علم سليمان أن بلقيس غادرت مملكتها وعاصمتها وقصرها.. لا شك أنها أحكمت إغلاق حجرة عرشها، وحذرت حراسها من أن يدخل إليه أحد.. علم سليمان بهذا، فنادى فيمن حوله من رجاله، من الجن والإنس:

ـ ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: 38].

لم يصنع سليمان لها عرشًا جديدًا مثل عرشها، لكنه يريد أن يأتي بعرشها[1] الذي في سبأ، فمن يأتيه به؟!

تبارى كثير من الرجال، يعرضون قدرتهم على إحضار هذا العرش في أسرع ما يستطيعون.

قال عفريت من الجن:

ـ ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: 39].

هنالك انبرى رجل[2] عرف بصدق إيمانه، وعلى علم بكتاب الله، واسم الله الأعظم، وقال لسليمان:

ـ ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: 40].

ونجح الرجل المؤمن بفضل معرفته بسر اسم الله، فأحضر عرش بلقيس أمام سيده سليمان، الذي سعد كثيرًا، حين رآه وشكر لله فضله ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل: 40]

وبينما كانت الأيام تمضي، في انتظار مقدم بلقيس، كان سليمان يعد في مملكته ما يؤكد كثيرًا من مظاهر عظمته وقدرته وقوته.

(1) يقال كان عرشها من الذهب محلى بالياقوت والزمرد والجواهر، قوائمه من الياقوت. [البداية والنهاية ج 2 ص 395]

(2) يقال إن هذا الرجل هو آصف بن برخيا، وكان ابن خالة سليمان، وكان على علم باسم الله الأعظم الذي يُقال به للشيء كن فيكون، بأمر الله.

كان سليمان يريد بهذه الطريقة أن يتأكد إن كانت بلقيس من الفطنة والحكمة، فتدرك أن سليمان على حق فيما يعبد، وأن إلهه خير من الشمس التي تعبدها، ومن أجل ذلك أمر سليمان رجاله أن ينكروا عرش بلقيس[1].

ولتكتمل صورة عظمة سليمان، أمر رجاله من الجن والإنس، فبنوا قصرًا كبيرًا، يكون مقرًا لبلقيس، وجعل أرضيته مغطاة بطبقة من الزجاج، تعلو صفحة ماء، وجعل عرش بلقيس في نهاية ردهة القصر.

* * *

وصلت بلقيس ورجالها وحراسها وما تحمله من هدايا إلى أورشليم فأدهشها ما رأت من مظاهر العظمة والرجال الذين يعملون، وهي تسير في شوارع أورشليم، حتى بلغت إلى حيث كان يقف سليمان في انتظارها، مرحبًا بها.

صورة من العظمة التي يتبادلها الملوك الأعزاء.

(5)

ثم كان اللقاء الذي جمع بين بلقيس وسليمان.

لا شك أن حديثًا طويلاً دار بينهما، تبادلا فيه وجهات النظر.. أعلن سليمان لبلقيس قدرة إلهه العظيم.. الله الواحد الذي خلق الكون بما فيه من شمس وقمر ونجوم، وسيرها بمشيئته.. هذا الإله العظيم الذي منح سليمان كثيرًا من النعم، والقدرات، لم يمنحها لغيره من البشر، الله الذي دعا إليه من قبل أجداده: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ومن بعدهم كانت دعوة موسى الذي بقي سليمان على العهد بها، يدعو الناس إليها.. يهديهم إلى الحق وإلى الصواب، واستطاع سليمان بفضل الله أن يقهر كل أعدائه ويسيطر على منطقة واسعة في فلسطين، وأن يمتلك زمام الموقف بيده.

(1) لعلهم في هذا التنكير.. قد حذفوا من عرش بلقيس بعض ما كان يزينه من حلي، أو أضافوا إليه حليًا أخرى، أو غيروا بعض فراشه بفراش آخر، أو غيروا في عدد أرجل العرش.

كانت بلقيس تستمع إلى سليمان، وهي مفتونة بما يقوله، حتى عن إلهه الذي يعبده، ولأنها كانت ذكية، تملك فطنة ووعيًا لما يدور حولها، فقد أدركت، أو لعل الله هداها إلى عظمة سليمان، وأن الشمس التي تعبدها، لا تستحق هذا السجود والتعظيم، فهي من صنع الله.. تختفي حينًا من اليوم ليلاً، وتشرق نهارًا.. لكن إله سليمان تبدو قدرته ومظاهر عظمته للجميع على الدوام.

بقيت المفاجأة التي أعدها سليمان لبلقيس.. عرشها الذي جاء به رجل سليمان إلى أورشليم!!

دعا سليمان بلقيس إلى القصر الذي هيأه لها بأرضيته الزجاجية، والذي جعل في نهاية معبره كرسي عرشها، لينظر مدى قوة ملاحظتها.

أشار سليمان بيده إلى عرش بلقيس، وقال لها.

ـ ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل: 42].

تفحصت بلقيس العَرش بعينيها عن بعد.. لا شك أنه هو.. لكنها لم تتصور أن سليمان يستطيع أن يأتي به من مأرب، لعله أمر بصنع عرش مثل عرشها، يحاكيه في الشكل، وما يحلى به من حلي وجواهر وأحجار كريمة.

لذلك قالت بلقيس:

ـ ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل: 42].

* * *

بدأت بلقيس تعبر صالة القصر، متجهة إلى العرش الذي مثل عرشها، فما كادت تفعل، حتى أحست أنها ستخوض لجة من المياه.. عليها أن تعبرها، فلم تتمالك نفسها، وشمرت ملابسها، حتى لا تبتل، فكشفت عن ساقيها[1].

كان سليمان يرافق بلقيس، فأدرك ما فعلت، وما صوره لها خيالها، حيث تعبر الطريق إلى عرشها، فناداها:

ـ لا أيتها الملكة ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ [النمل: 44].

---

(1) زعم فريق من الرواة السابقين أن ساقي بلقيس كانتا مشعرتين (غزيرتي الشعر) لأنها ابنة جنية، ونحن لا نستطيع أن نؤكد أو ننفي هذا، ولا يغير هذا من جوهر القصة.

هنالك ازدادت بلقيس إيمانًا بقدرة إله سليمان وعظمته، وأن عليها ألا تصر على عبادة إلهها الشمس، وأن عليها أن تسلم بإله سليمان، هذا الإله القادر العظيم، فقالت تعبر عما في نفسها:

- ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: 44].

هكذا أعلنت بلقيس إيمانها بإله سليمان.. لا شك أن رجالها تبعوها.

(6)

بإسلام بلقيس لإله سليمان.. انتهت قصتها في القرآن الكريم، وكذلك في العهد القديم.

لكن بعض الرواة السابقين، ومنهم ابن كثير والثعلبي، شاءوا أن يضيفوا فصولاً جديدة إلى القصة، قال بعضهم: إن سليمان تزوج بلقيس، وأقرها على مملكتها[1] في سبأ، وكان يزورها كل شهر، ويقضي عندها ثلاثة أيام[2].

* * *

رحم الله بلقيس بقدر جهودها في نهضة مملكتها، واعترافها بالحقيقة، وإيمانها بالله الواحد.. إله سليمان القادر، وجزاها خيرًا أنها استطاعت أن تقنع شعبها بالحقيقة، وبلا إكراه أو جدال، فأسلموا معها، فأثابها الله عما فعلت.

---

(1) هذا يؤكد أن اليمن وصلتها الدعوة اليهودية، ولكنها لم تدخل في نطاق أملاك سليمان، كما يدعي بعض اليهود. [المؤلف]

(2) يقول البعض إن سليمان كان له 700 زوجة من كثير من المناطق المحيطة به من الأدوميات والحثيات والمؤابيات والصيدونيات، وإنه تزوج ابنة أحد فراعنة مصر في ذلك الوقت، فلا بأس من أن يكون تزوج بلقيس.

الفصل الثالث عشر

أليصابات

زوج زكريا وأم يحيى عليهما السلام

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 89 ـ 90].

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 38 ـ 40].

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: 7 ـ 9].

(1)

كان الربيع قد أدبر، وسلم الكون إلى فصل الشتاء، حينما استيقظت ذات يوم أليصابات[1] وزوجها زكريا[2] يطالعان في السماء وجه الصباح، ويذكران فضل الله عليهما، ويصليان له، فما انتهيا من صلاتهما ودعائهما، حتى ارتدى زكريا مسوحه البيضاء، وخرج يتوكأ على عصاه، ذاهبًا إلى المعبد في قريته عين كارم[3] يعظ الناس، ويهديهم، ويدعوهم أن يفعلوا الخير، ويعبدوا الله، وأن يقضوا بالعدل، وكان زكريا يهتف بهم:

ـ ويل للراعي الذي يترك غنمه تحرسها الذئاب.

كان زكريا أحد أنبياء بني إسرائيل، عرف بين قومه بالصلاح والتقوى، يعلم الناس توراة موسى ومزامير داود، ويهديهم في عصر ضاعت فيه الحقيقة، وطغت الماديات، وغرق القوم في الضلال.

أما أليصابات، فقد خرجت إلى صحن دارها.. تتابع قرص الشمس، وهو يعلو في الأفق.. يبدد ظلام ليل الأمس الدابر.

---

(1) أليصابات بنت فاقود: تعرف الآن باسم إليزابث، كانت أخت حنة أم مريم بنت عمران أم المسيح عيسى عليه السلام، لم يرد اسمها في القرآن الكريم بلفظه، ولكنه جاء بمدلول أنها امرأة زكريا، وأم يحيى عليه السلام وذكرت باسمها عدة مرات في عدة إصحاحات من الأناجيل (العهد الحديث).

(2) زكريا: هو زكريا بن برخيا بن دان.. ينتهي نسبه إلى رحبعام بن سليمان بن داود عليهما السلام، كان يعمل نجارًا، جاء اسمه في القرآن الكريم سبع مرات في سورة آل عمران ومريم والأنبياء: [المعجم المفهرس ص٣٢١] وله سفر باسمه في العهد القديم، يتكون من 14 إصحاحًا، وهو أحد الأنبياء الذين بعثهم الله لبني إسرائيل ـ وكان يعرف باسم نبي الرجاء.

(3) عين كارم: إحدى قرى فلسطين الواقعة في أرض الخليل قرب إيليا (أورشليم ـ القدس)، يحيط بها، أو يقترب منها بيت لحم، وأريحا وبيت صور وحبرون، هي الآن مستوطنة يهودية في الضفة الغربية منذ عام 1953، تعرف الآن باسم (عين كاريم) [خريطة فلسطين]

لم تدر أليصابات بنفسها، وقد حانت منها التفاتة إلى شجرة الزيتون القائمة في صحن دارها.. كان الخريف قد عراها.. إلا من بعض أوراق بدت تترنح، لاذت بفروعها في مواجهة مع رياح الشتاء الباردة، كأنها مصرة على البقاء، ترفض أن تسقط مثل غيرها!! وبين هذه الأوراق الجافة بدت إحدى الأزهار.. لم تتفتح عن كمها، تجاورها إحدى ثمرات الزيتون.. صورة جديدة عليها لم يعرفها الشتاء!!

فبينما أليصابات في دهشتها مما ترى.. أقبلت عليها جاريتها (دينة)، وقد ملأت السعادة وجهها، وهي تقول:

- أبشري يا سيدتي بالخير، فقد رأيت ليلة أمس فيما يرى النائم بعد صلاتي، كأنك تهدهدين طفلاً.. تحتضنينه على صدرك، ما أحسبها أضغاث أحلام.

عادت أليصابات تنظر إلى شجرة الزيتون.. إلى تلك الأوراق التي يبست وجفت.. إلى الزهرة، وثمرة الزيتون في أعلى الشجرة!! ألا ما أبدع قدرة الخالق!!

أحست أليصابات فيما رأته اليوم، وفي كلمات جاريتها فألاً حسنًا.. طابت لها نفسها، كانت كسلسبيل بارد أثلج صدرها، فقد كانت أليصابات قد جاوزت التسعين من عمرها.. باعدت السنون بينها وبين تحقيق الأمل الذي يراودها وزوجها. طالت بهما الأيام، ولم تنجب أليصابات ابنًا يرث مكانة أبيه في قومه.. ابيضَّ شعرها. وَهَن زوجها، ولم يعد الأمل في نفسها إلا مجرد خيال خابٍ.. عفت عليه الأيام..

كثيرًا ما خلت أليصابات بنفسها، تنادي ربها أن يمنحها الولد، وكثيرًا ما جلس زكريا في محراب هيكل الرب بقريته عين كارم يناشد ربه أن يمنحه الولد الذي تهفو إليه نفسه، ليحمل من بعده راية العلم.. ينادي ربه:

- ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: 89].

كانت أليصابات امرأة طيبة صالحة.. لكنها كانت تحس في عقمها كأنها مذنبة، يعاقبها الله، ويعلم الله أنها ما أخطأت في حقه، وأنها على العهد به.. عابدة.. قانتة.

لقد عاشت أليصابات وزوجها على حب الناس لهما، وحبهما للناس، وشاء الله حينًا أن تشاركهما حياتهما مريم ابنة أختها حنة.. حين نذرتها أمها لخدمة

هيكل الرب، وكفلها زكريا، كان الزوجان سعيدين في رحاب مريم.. منحتها أليصابات فيضًا من أمومتها، وهي التي لم تستطع السنون الطويلة أن تنسيها طبيعتها كامرأة، لكن مريم قد غادرت عين كارم بصحبة خطيبها يوسف النجار إلى الناصرة، ليعيشا حياتهما كخطيبين، ثم كزوجين بعد أن يحول الحول، ينهلان من الحياة نصيبهما من السعادة، ويعيشان بالحب والوفاء.

وهكذا شاء الله لزكريا وأليصابات أن يعودا إلى وحدتهما.. لكن الأمل كان يراودهما.. يتذاكران جدتهما سارة زوج جدهما إبراهيم.. كانت عاقرًا.. لكن الله عوضهما بعد طول انتظار بابنهما إسحاق، فهل يقدر الله لهما أن يهبهما ابنًا، يملأ عليهما فراغ حياتهما، كما شاء لسارة وإبراهيم.

أعادت كلمات الجارية (دينة) إلى أليصابات الأمل، جددت في نفسها الشوق إلى الولد، فهرعت إلى مصلاها.. تنادي ربها وتدعوه، حتى إذا انتهت من صلاتها، أحست بفيض من الأمل يغمرها.. يملأ صدرها بالحنين إلى الولد.

(2)

تتابعت الأيام، وصورة حلم (دينة) جارية أليصابات لا تفارقها.

حتى كان ذات يوم..

كان أحد الأعياد التي اعتاد اليهود أن يحتفلوا بها كل عام في هيكلهم[1] المقدس بأورشليم (إيليا) كما سماها الرومان، ووضعوا على باب الهيكل النسر الذهبي شعار الرومان!!

كان زكريا أحد خدام هيكل الرب في أورشليم الذين لهم حق دخول مذبح القرابين، ويؤمُّون الناس في صلاتهم.

(1) هذا الهيكل بناه هيرودس الحاكم الآدومي لفلسطين من قبل الرومان، بناه بعد أن تحطم هيكل سليمان، هذا الهيكل كان مقرًا للعبادة فقط، ولكن الرومان جعلوه سوقًا، ومسرحًا للاحتفال والرياضة، فضاعت ملامحه الدينية وإن بقيت له مكانة التقديس في نفوس اليهود.

لذلك.. غادر زكريا قريته عين كارم.. تصحبه زوجه أليصابات، وبعض جيرانهما.. ذهبوا ليحتفلوا بالعيد في أورشليم.

أخذت مدينة أورشليم في ذلك اليوم زينتها، وماجت بالحركة والنشاط باليهود الذين جاءوا إليها من أنحاء متفرقة من فلسطين، ينشدون عند الهيكل آمالهم، وحاجتهم.

ولأن خدمة الهيكل تعيَّن بالقرعة بين كبار الكهان، ولأمر شاءه الله في ذلك اليوم، كانت القرعة لزكريا، ليدخل مذبح القرابين للرب، ويؤم الناس في صلاتهم.

كم كانت أليصابات سعيدة في هذا اليوم، فزوجها في هيكل الرب أقرب ما يكون إلى الله، فلعله يناديه بكل ما في قلبه من آمال.. أن يرزقهما الولد.

(3)

كَسَا البِشْر وجه زكريا، وهو يمسك المبخرة بيمناه، ويصعد درجات السلم إلى مذبح القرابين، حتى إذا دخل، أشار إلى القوم أن ينتظروا، حتى يقدم للرب القرابين، ويدعوه أن يباركهم، ويحقق آمالهم، ثم يصلي بهم.

ما كاد زكريا يدخل مذبح القرابين. حتى وجد أمامه رجلاً في ثياب بيض، فارتجفت المبخرة في يده، وما استطاع أن يمسك لسانه، وهتف:

ـ ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[1] [مريم: 4 ـ 6].

(1) وردت قصة زكريا وتبشيره بميلاد يحيى (يوحنا) في العهد الجديد.. إنجيل لوقا. (كان في أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا وامرأته أليصابات، فبينما هو يكهن في نوبة فرقته أمام الله، أصابته القرعة أن يدخل هيكل الرب، فظهر له ملاك الرب واقفًا عن يمين مذبح البخور، فلما رآه زكريا اضطرب، ووقع الخوف عليه، فقال له ملاك الرب: لا تخف يا زكريا لأن طلبتك قد سمعت، وامرأتك أليصابات ستلد لك ابنًا وتسميه يوحنا لأنه يكون عظيمًا أمام الرب، وخمرًا مسكرًا لا يشرب منه..) لوقا. الإصحاح الأول. الفرق بين القرآن الكريم والإنجيل أن القرآن الكريم كان يعتبر زكريا نبيًا، أما الإنجيل، فاعتبره كاهنًا.. رجل دين.

ما كاد زكريا ينتهي من دعائه.. حتى أحس كأنه أزال عن صدره حملاً ثقيلاً، ينوء به كاهله، ولدهشته سمع من يناديه:

ـ ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 7].

ودهش زكريا وهو يسمع من يخبره:

ـ ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: 39]

نادى زكريا ربه:

ـ ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: 40].

فسمع زكريا من يناديه:

ـ ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: 9].

لم يكن هناك شك في أن الله حقق لزكريا ولزوجه أملهما في الولد، لكن الدهشة غلبت على زكريا، ماذا يقول لقومه، حينما يعلمون بأمر أليصابات؟!! قد تأخذهم الأقاويل والأفكار مناحيَ شتى، ويظنون بهما الظنون، فكيف لشيخين استطال بهما العمر أن ينجبا؟!! فنادى زكريا ربه:

ـ ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ [مريم: 10].

ـ ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: 10].

سريعًا.. اختفى ملاك الرب.. ترك زكريا في نشوة فرحته ودهشته.

بينما كان ذلك يحدث.. كان القوم في انتظار أن يخرج إليهم زكريا من مذبح القرابين، ليصلي بهم، لكن زكريا طال به الوقت مما جعل أليصابات تخشى عليه، ترى ماذا أصابه؟! وعبثت المخاوف بعقل أليصابات، فزوجها رجل عجوز.. اكتهل به العمر، وضعفت صحته، لعل الموت أعجل به وهو قريب من ربه، فماذا يكون حالها بعده؟! كم تمنت أليصابات أن تصحب زوجها لتدخل معه إلى مذبح القرابين، ولعلها، وقد طال انتظارها، فكرت أن تصعد إليه، لتطمئن على حاله، وما كانت تدري وهي في خضم لهفتها عليه أنه أقرب ما يكون إلى ربه، وأن الله تكرم عليه وحقق أمله وأملها.

* * *

بعد حين.. خرج زكريا إلى الناس، وقد اكتسى وجهه بصور كثيرة من الدهشة والفرحة، والخوف، كانوا ينتظرون منه أن يطلب إليهم أن يدخلوا في صلاتهم ليؤمهم فيها، لكنه لدهشة الناس بدا ساكتًا.. تتحرك شفتاه، دون أن ينطق، وإنما أشار إليهم بإصبعه أن يصلوا!!

ترى أى شيء أعجز زكريا عن الكلام؟! أي شيء دفعه إلى الصمت وهم في حاجة إلى من يتحدث إليهم؟! سؤال كان يتردد في ذهن أليصابات وغيرها من القوم.

وزادت دهشة الناس حينما أدركوا أن زكريا استمر على صمته، بعد انتهاء الصلاة.. حتى مع زوجته.. كانت تتحرك شفتاه، دون أن يصدر عنه صوت!! كأن لسانه عقد!!

حتى إذا انتهت أيام الصيام[1] الثلاثة، فكَّت عقدة لسان زكريا.. فتكلم.. فكان أول ما قاله، أن أخبر زوجته بتحقيق الأمل في الولد.. بهذا بشره ملاك الرب، وهو أقرب ما يكون إلى ربه.

فيا لها من سعادة ملأت وجه وصدر أليصابات! حتى إن الفرحة مسحت على وجهها آثار الشيخوخة وبصمات السنين، فبدت أكثر ما تكون إشراقًا وبهجة، كيف لا وقد تحقق لها الأمل الذي طال انتظاره!

لا شك أن أهل قرية عين كارم كانوا سعداء لسعادة صاحبتهم أليصابات.. سعداء بفضل الله عليها وعلى زوجها، وعادت إلى الجميع ذكرى جدتهم سارة، حينما بشرها الله بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب.

(4)

عاد زكريا وأليصابات ورفاقهما من أورشليم إلى عين كارم سعداء يباركون لأليصابات وزكريا منحة الله لهم.

ومضت الأيام.. حتى أحست أليصابات بعلامات حملها، فشكرت للرب أن حقق لها ما وعد به.

---

(1) كان الصيام عن الكلام عند اليهود في ذلك الوقت صورة من صور العبادة، والتقرب إلى الله، وقد جاء في الإصحاح الأول من إنجيل لوقا: (فقال زكريا للملاك كيف أعلم هذا؟ لأن أنا شيخ وامرأتي متقدمة في السن، فأجاب الملك: ها أنت تكون صامتًا، ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذى يكون من هذا، فلما خرج زكريا لم يستطع أن يتكلم، ففهموا أنه قد رأى رؤيا في الهيكل، فكان يومئ إليهم ويبقي صامتًا). [الفقرات: 18 ـ 23].

كان الشتاء قد انتهى، وبدأ فصل الربيع، فأورقت الأشجار، وأزهرت، وكانت أليصابات أكثر سعادة، وهي تنظر إلى شجرة الزيتون، وقد كستها الأوراق، فتعود إليها ذكريات ذلك اليوم، وحديث جاريتها (دينة)، فتحس بفرحة تملأ كيانها، فقد أصلح الله أمرها، وهيأها لتكون أمًّا، تمارس أمومتها، وتفيض بعواطفها وحنانها على ابنها الذي ستلده.. يحيى كما أسماه الله لأبيه.

* * *

لم يكمل القرآن الكريم بقية الأحداث التي وقعت لزكريا وأليصابات بعد ذلك، وكيف انتهت حياة كل منهما، ذلك لأن القرآن الكريم أراد أن يحكي للقوم هذه المعجزة.. أن ينجب شيخان طاعنان في السن ابنًا لهما، لتكون هذه المعجزة حسية، يدركها الجميع، حقيقة واقعة أمام عيونهم، وعلى مسمع منهم لقوم عزفوا عن عبادة ربهم، وتبرءوا من تعاليم موسى نبيهم، وغالوا في الخطيئة، وانغمسوا في الملذات والشهوات، وتشيعوا للكفار والرومان، يمالئونهم، ويأتمرون بأمرهم!!

وإذا كان القرآن الكريم قد اكتفى بما حكاه، فإن العهد الحديث (الأناجيل) قد أكملت قصة هؤلاء الثلاثة، يحيى وزكريا وأليصابات، لتمضي بهم الأحداث كما شاءها الرب، وليظهر دور أليصابات في حياة يحيى ابنها وزكريا زوجها.

(5)

أشرق صباح ذات يوم، فخرج زكريا لبعض شئونه، كنجار يؤدي عملاً يكسب منه رزقه، أو ككاهن يدارس قومه شئون دينهم، بينما بقيت أليصابات في دارها سعيدة بانتظار مولد ابنها.

لم تدر أليصابات بنفسها، وهي تتحسس بطنها كأنها تطمئن على حملها، فإذا طرقات على باب دارها، فأسرعت تفتحه، فإذا هي على لقاء مع مريم ابنة أختها حنة، فسعدت بها كثيرًا، وكانت مريم أكثر سعادة بخالتها.

لكن شيئًا أصاب أليصابات في لقائها مع مريم، فما كادت أليصابات تحتضن مريم، حتى ارتكض الجنين في بطنها.

قالت أليصابات تحاول أن تجلو حقيقة دهشتها:

ـ فبحق الرب يا مريم، أخبريني عن حقيقة أمرك، ولماذا ارتكض الجنين في بطني، حين احتضنتك، وما لي بذلك عهد؟!

كانت مريم في ذلك الوقت قد عادت من الناصرة بعد أن بشرها ملاك الرب بكلمته التي ألقاها إليها وروح منه، كان ملاك الرب قد أخبر مريم أن قريبتها التي هي أليصابات قد حملت في شيخوختها، وأنها في شهرها السادس، لذلك حضرت مريم إلى أليصابات، لتحكي لها ما حدث لها، ولتتأكد مما قاله لها ملاك الرب.

حديث طويل في مودة.. دار بين أليصابات ومريم.. استعادتا خلاله ذكريات طيبة محببة إليهما.. ولقد سعدت مريم بأن بارك الرب أليصابات وحقق أملها في شيخوختها هي وزوجها زكريا، ولا شك أن مريم قضت عدة أيام عند أليصابات، وأن زكريا سعد بها، وتذكر نعم الله عليها..

بعد حين.. عادت مريم إلى دارها في الناصرة، تشارك خطيبها يوسف النجار حياته، وبقيت أليصابات في دارها في عين كارم، تنتظر خروج جنينها إلى الحياة بلهفة، حتى وضعت ابنها يحيى أو يوحنا[1]، فسعدت به وأسعدت زوجها.

وسعد الأهل والأصحاب في عين كارم وما حولها.

هكذا شاء الله أن يتم نعمته على أليصابات وزوجها، وأن يحقق أملهما. بعد أن أعوزهما الصبر.

الله معك يا أليصابات، وأنت تحتضنين صغيرك.. ينعم في مهده بحنانك وحبك وعطفك، رجاء أمل يشرق في نفسك بعد ليل طويل، ونجم مضيء أنار حياتك، وملأ نفسك بهاء وصفاءً.. طلع في سماء حياتك.

---

(1) (وأما أليصابات، فقد تم زمانها لتلد، فولدت ابنًا، وسمع جيرانها ففرحوا، وسموه باسم أبيه زكريا، فقالت: بل يوحنا (يحيى) وأنت أيها الصبي تدعى نبي، لتضيء مع الجالسين في الظلمة) لوقا، الإصحاح الأول فقرات 71 ـ 80.

وسعدت أليصابات وهي تحتضن وليدها، تشبعه من فيض عواطف أمومتها وحبها وحنانها، فما تملك إلا أن تهدأ في صلاتها، تناجي ربها وتناديه، وتشكره على ما أفاء به عليها من فضل ونعيم.

(6)

مضت الحياة سعيدة رخاء بأليصابات وزكريا، وهما ينعمان بالقرب من يحيى، ربما مضى عام.. يقل أو يزيد قليلاً.

حتى كان ذات يوم..

استيقظت أليصابات على صوت نائحة تنوح، نادبة تندب، باكية، تحاول أن تخنق صرخاتها في قلبها فما استطاعت.

لقد كان صوت جارتها (بريسكلا)، كان صوت بريسكلا بين الصراخ والأنين والبكاء.. يعلم الله كم من دموع تساقطت على وجهها، وقد صرعها الحزن.

ترى ما أمر هذه المرأة بريسكلا؟ وما يبكيها؟!

وعرفت أليصابات ما حدث لجارتها.. لقد هاجم رجال هيرودس[1] دارها، وانتزعوا منها طفلها (يهوذا)، وأعملوا فيه سكاكينهم.. ذبحوه، وأراقوا دماءه الطاهرة، كان لا يزال طفلاً، يحبو في عامه الثانى، لم يأثم ولم يذنب، لكن رجال هيرودس ذبحوه، ولا تزال ابتسامة البراءة تملأ وجهه!!

وأصاب الحزن قلب أليصابات على ابن مريم[2] وجارتها وابنها، وخيم على الناس الخوف، وعلموا حقيقة ما حدث.

(1) هيرودس: كان حاكمًا آدوميًا (من الآدوميين)، عينه الرومان حاكمًا على أرض اليهودية (72ق.م ـ ٤ق.م) عرف بقسوته وظلمه ومذابحه، وهو الذي أمر بذبح الأطفال حين ولد المسيح، حكم من بعده ابنه هيرودس أنتيباس (4 ـ 37م) الذي كان رئيس ربع على الجليل، وهو الذي أمر بقطع رأس يوحنا المعمدان (يحيى).

(2) كانت مريم بنت عمران (ابنة أخت أليصابات) قد وضعت ابنها عيسى في بيت لحم، حينما جاءت إليها هي وخطيبها يوسف النجار، ليسجلا اسميهما في سجلات الساكنين، وكان رجال مجوس قد رأوا نجمًا يعرفونه في بلادهم أرض فارس، هذا النجم يعلن عن ميلاد نبي في فلسطين، فتابعوا مسيرة النجم، حتى وصلوا إلى بيت لحم، والتقوا مع هيرودس، وأخبروه بأن هذا الطفل الذي ولد منذ عام أو أكثر، سيكون سببًا في ضياع ملكه وسلطانه، لذلك أمر هيرودس رجاله بقتل كل أطفال بيت لحم وما حولها، الذين ولدوا قبل عامين، حتى يقضوا على هذا الطفل الذي يخشاه هيرودس!!

إنها أوامر هيرودس لرجاله.. أن يذبحوا كل الأطفال الذين ولدوا منذ عامين، أو أقل في بيت لحم وما جاورها من القرى التي تقترب من أورشليم!!

ووجم الناس مما رأوا وما سمعوا، تكاد تتساقط أنفسهم حسرات على ما آل إليه أمرهم على يد هذا الحاكم الظالم.

وجرت على أرض بيت لحم وما جاورها.. الخليل، وعين كارم، وحبرون.. وغيرها.. بحار من دماء الأطفال الذين ذبحهم رجال هيرودس، فعادت إلى الأذهان صورة ما فعله فرعون مصر، وهو يذبح أطفال بني إسرائيل، حين ولد موسى عليه السلام.

كان الله قد أمر يوسف النجار خطيب مريم أن يأخذها وابنها عيسى ليهربوا إلى مصر، هكذا شاء الله أن ينقذ عيسى من سكاكين رجال هيرودس، كما أنقذ من قبل موسى من سكاكين رجال فرعون.

أحست أليصابات بالخطر يحدق بها وابنها.

لك الله يا أليصابات، أبعد هذا الانتظار الطويل ـ وقد حقق الله لكِ الآمال في الولد الذي هفت إليه نفسك طويلاً ـ يأتي رجال هيرودس ليذبحوه؟!!

كانت أليصابات تنظر بعينيها إلى ابنها، فيفزعها أن يغدو مجرد ظلال باهتة، بأمر من هيرودس، فتتساقط دموعها حسرات، تعلن عما يعانيه قلبها.

وبينما خرج زكريا إلى معبد قريته، ليصلي بالقوم، ويدعو الله أن يفرج عنهم كربهم، ويعيد الأمن إلى نفوسهم.. حملت أليصابات ابنها يحيى، واتجهت به بعيدًا.. بعيدًا.. إلى الصحراء[1]!!

* * *

هاجم رجال هيرودس دار زكريا، فقد علموا أن امرأته وضعت طفلاً.. أخبرتهم بذلك إحدى نساء قومها التي ملأ الحقد قلبها، فقد كانت هي الأخرى عاقرًا.. فلماذا استجاب الله لدعاء أليصابات ووهبها يحيى، بينما بقيت هي على عقمها، لم تنجب؟ فدفعها حقدها على أليصابات إلى أن تشي بها عند رجال هيرودس، كأنما تحثهم على قتل يحيى!!

(1) هي صحراء جلعاد: منطقة خالية من الحياة البشرية، تقع شرق نهر الأردن (نهر الشريعة) كانت تعرف باسم أرض الخراب.

لم يجد رجال هيرودس طفلاً، وما وجدوا أمه.. حتى أباه زكريا، ما وجدوا إلا جدران الدار فارغة، فساءهم ما وجدوا، وأحزنهم أن يفلت منهم يحيى.. أصابتهم غصة في حلوقهم.

لذلك أسرع رجال هيرودس إلى معبد قرية عين كارم، فإذا زكريا يصلي بالناس، فانتزعوه من صلاته، ولما سألوه عن ابنه، لم يستطع أن يجيب عن سؤالهم، فما كان يعلم أن امرأته هربت به إلى الصحراء.

وفي ثورة من رجال هيرودس، ذبحوا زكريا في محراب المعبد، ذبحوه[1] أمام الرجال الذين لم يستطيعوا أن يمسكوا دموعهم وحسرتهم على ما أصاب كاهنهم، وما يملكون إلا السخط على هذا الحاكم الآدومي الظالم ورجاله القساة.

وهكذا أفل نجم أحد الأنجم الثلاثة، يحيى وزكريا وأليصابات.

أفل نجم زكريا.. النبي الصالح..

رحم الله زكريا بقدر صبره على طول آماله، وما وهبه لقومه من مواعظ، ودعوتهم إلى الهدى والرشاد، وعبادة الله وحده، وحثهم على نبذ الرياء لسادتهم الرومان، وكفاه فخرًا أن الله أجرى على يديه إحدى معجزاته الحسية، واستجاب دعاءه، وانتهت به الحياة، وهو أقرب ما يكون إلى ربه.. في صلاته.

(8)

عاشت أليصابات مع ابنها يحيى في الصحراء، ترعاه، وتحنو عليه، حتى إذا علمت أن الهدوء ساد المنطقة بعد أن كف رجال هيرودس عن مذابحهم عادت.. آسفة على ما حدث لزكريا، وبقيت ست سنوات تزور ابنها في الصحراء، حتى شاء الله لها أن تنتهي بها الحياة، أفل نجمها.. ثاني الأنجم الثلاثة.

رحم الله أليصابات بقدر إيمانها وصبرها ورعايتها لزوجها وخوفها على ولدها، والحفاظ على حياته مما قد يصيبه.

* * *

---

(1) تواترت آراء كثير من الرواة السابقين عن مقتل زكريا، وللأسف تشيع لهم بعض الكتاب المعاصرين، ورددوا ما قالوه، دون أن يكون لهم سند من القرآن أو السنة، ولا حتى من العهدين القديم أو الحديث.. وما كانت هذه الآراء إلا خيالات وأوهامًا، فزعموا أن زكريا هرب من رجال هيرودس، ودخل إحدى الأشجار، فدلهم عليه إبليس، فشقوا الشجرة نصفين، وشقوا معها زكريا!!

في البادية كان يحيى يعيش.. لباسه من وبر الإبل، وطعامه جراد وعسل بري[1]. كانت البادية كتابًا مفتوحًا أمام يحيى، تعلن عن قدرة الله وعظمته، رأى يحيى مشرق الشمس، وتابعها في مغربها وراء الأفق، عاش حياة النهار والليل، كثيرًا ما تابع جماعات النحل، وهي ترتشف طعامها من رحيق أزهار الشجيرات المتناثرة في البادية. لتعيش في شقوق الجبال، تخرج عسلاً شهيًا، فيه شفاء للناس.

عايش زكريا حياة البادية، ورأى جماعات الجراد التي تآلفت، واصطاد منها ما كان له طعامًا.

كانت حياة زكريا متصلة بالرب.. عرفه، وعرف قدرته وحكمته وعظمته، يعيش عيشة التقشف، راضيًا بالحرمان.

﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: 12].

ولا شك أن يحيى في موقعه هذا قد اتصل بالمارين عبر طرق تجارتهم، فعلم ما كان يقترفه هيرودس[2] من فساد، وساءه ما كان يفعله كهنة دينه من مآثم.

حتى كان ذات يوم..

بعث الله يحيى رسولاً إلى قومه من بني إسرائيل، يهديهم إلى الحق، بعد أن ضلت بهم أهواؤهم، وفسدت عقيدتهم، فغادر الصحراء، ووقف عند بيت عينا[3]، يدعو الناس إلى التوبة، ويعمدهم بماء النهر المقدس[4]، نهر الشريعة، ويهتف بهم:

- توبوا، فقد اقترب ملكوت السماوات.

ولا شك أن الناس عرفوا حقيقة يحيى، عرفوا أنه ابن الكاهن زكريا وأمه أليصابات التي هربت به إلى البادية، لتبعده عن سكاكين رجال هيرودس الكبير، كان ذلك منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا مضت.

---

(1) في تلك الأيام كان يوحنا المعمدان (يحيى) يكرز في برية اليهودية، كان لباسه من وبر الإبل، وعلى حقويه (وَسَطِه) قطعة من جلد (حزام) وكان طعامه جرادًا وعسلاً بريًا. [إنجيل متى الإصحاح الثالث فقرات 1 ـ 5]

(2) بعد موت هيرودس، اقتسم أبناؤه أملاكه، فكانت أرض الجليل من نصيب ابنه أنتيباس الذي استمر على مسيرة أبيه من القسوة والظلم، وهو الذي أمر بذبح يحيى!!

(3) بيت عينا: تقع غرب نهر الأردن (نهر الشريعة) قرب أورشليم.

(4) هو النهر الذي يعرف الآن باسم نهر الأردن، وفي هذا الوقت جاء عيسى عليه السلام ليتعمد من يحيى.

كان يحيى يعظ الناس، ويدعوهم إلى التوبة، وهجر المعاصي، ويخبرهم باقتراب النبي الذي سيعيدهم إلى الحق.

هكذا عرف الناس يحيى.

(9)

لم يذكر القرآن الكريم تفاصيل ما حدث ليحيى، وكيف انتهت به حياته.. لكن كلاً من إنجيل متى وإنجيل مرقس[1] تحدثا عن هذه النهاية الحزينة، كما أن حديثاً[2] لرسول الله أكد هذه الحقيقة.

شاء الله في تلك الفترة من التاريخ أن تدخل في حياة يحيى امرأتان هما هيروديا وابنتها سالومي اللتان تركتا صفحة سيئة، وكانتا سببًا في نهاية حياة يحيى، هذا النبي الصالح الطيب.

في تلك الفترة.. كان يحكم فلسطين أبناء هيرودس الكبير: أرخيلاوس وأنتيباس وفيليبس.

كان فيليبس متزوجًا من امرأة جميلة خبيثة ماكرة، عرفت بصلابتها وإصرارها على الخطيئة، وشاءت الظروف أن يزور أنتيباس أخاه فيليبس، فما كاد يرى زوجته، حتى وقع في هواها، ورسم الخطط ليحصل عليها، فافتعل نزاعًا

(1) (لأن هيرودس نفسه كان قد أرسل وأمسك يوحنا وأوثقه في السجن من أجل هيروديا امرأة أخيه فيليبس إذ كان متزوجًا بها، لأن يوحنا كان يقول لهيرودس: لا يحل أن يكون لك امرأة أخيك، فحنقت هيروديا عليه، وأرادت أن تقتله، ولم تقدر، لأن هيرودس كان يهاب يوحنا عالماً أنه رجل بار وقديس، وإذا كان يوم صنع هيرودس في مولده عشاء لعظمائه ووجهاء الجليل، فدخلت ابنة هيروديا ورقصت، فسرَّت هيرودس والمتكئين معه، فقال الملك للصبية مهما أردت اطلبي مني فأعطيك، وأقسم لها أن مهما طلبت مني لأعطيك حتى نصف مملكتي، فخرجت، وقالت لأمها ماذا أطلب؟ فقالت لها: رأس يوحنا المعمدان، فقالت له: أن تعطيني رأس يوحنا المعمدان على طبق، فحزن الملك، ولأجل الإقسام والمتكئين لم يردها، فأرسل الملك سيافاً، وأمره أن يأتي برأس يحيى، فمضى وقطع رأسه في السجن وأتى برأسه على طبق، وأعطاه للصبية، والصبية أعطته لأمها). [إنجيل مرقس الإصحاح السادس فقرات 17 ـ 29].

(2) في حديث لرسول الله أنه قال: «من هوان الدنيا على الله أن يحيى بن زكريا قتلته امرأة».

[الثعلبي ص 346]

بينه وبين أخيه، وحاربه، وانتصر عليه، وقبض عليه، وسجنه في سجن مهجور، ثم قتله، واستولى على زوجته هيروديا وابنتها سالومي.

أراد أنتيباس أن يتزوج هيروديا زوجة أخيه، لكن شريعة اليهودية تحرم هذا الزواج، ومن أجل هذا أعلن يحيى معارضته، ورفض كل محاولات أنتيباس، لأن هذا يخالف الشريعة اليهودية.

بعثت هيروديا إلى يحيى، فلقيها في قصرها، مصرًّا على موقفه، مما جعلها تدفع إليه في طريقه ابنتها سالومي الجميلة، تحاول إغراءه، ليوافق على زواج أمها من عمها، لكن يحيى رفض بإصرارٍ هذه الجريمة.

حقدت هيروديا على يحيى، وأضمرت له الشر والقتل، حتى تتخلص منه، ويصفو لها ولأنتيباس الجو.

فلما كان عيد ميلاد هيرودس أنتيباس.. عمدت هيروديا إلى ابنتها الجميلة سالومي، فزينتها، وألبستها ملابس تظهر فتنتها وجمالها، وطلبت منها أن ترقص، احتفالاً بعيد ميلاد عمها، ورقصت سالومي رقصة افتتن بها الحاضرون في مجلس عمها.

هنالك دعاها عمها أن تعيد رقصتها، حتى إذا انتهت من استحسان الحاضرين، طلبت من عمها أن يفي بوعده، وأن يحقق لها ما تريد، وكان طلبها أن يأتيها برأس يوحنا المعمدان في طبق من ذهب.

تردد هيرودس في أول الأمر، لكن سالومي، بتحريض من أمها طالبته أن يفي لها بعهده.

لم يجد هيرودس أنتيباس بدًّا إلا أن يخضع لمشيئة سالومي التي تحركها بالحنق على يحيى أمها هيروديا، لذلك بعث ببعض رجاله إلى حيث كان يحيى يقيم في سجنه، فذبحوه، وجاءوا برأسه إلى سيدهم، فوضعها في طبق من ذهب، وأعطاها لسالومي التي قدمته إلى أمها في سعادة، حتى إن هيروديا حاولت أن تقطع لسان يحيى من فمه، انتقامًا منه لما كان يتحدث عنها، لكن الرب أمسك يدها عما أرادت أن تفعل!!

وقد انتقم الله لنبيه يحيى من الثلاثة الذين أساءوا إليه: أصيبت سالومي بالجنون، وهامت على وجهها في الصحراء، حتى ماتت جوعًا، وقيل إنها انتحرت، كما هاجم ملك صيدا هيرودس أنتيباس، وانتصر عليه، وقبض عليه، وقتله هو وهيروديا!!

* * *

رحم الله يحيى بن زكريا بقدر ما عاناه في حياته، وبقدر ما قدمه للناس من نصائح، وما أصابه من سوء في سبيل إعلاء كلمة الحق.

من أجل هذا.. كان أحد سادة شباب الجنة[1].

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾[2] [مريم: 15].

---

(1) في حديث لرسول الله ﷺ أنه قال: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة إلا ما كان من أمر ابني الخالة عيسى ويحيى».

(2) مما يذكر أن يحيى وعيسى التقيا، فقال عيسى ليحيى:

ـ استغفر لي، أنت خير مني.

فقال يحيى:

ـ أنت خير مني، سلمتُ على نفسي، وسلَّم الله عليك. [البداية والنهاية لابن كثير ص 424].

عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يلقى الله عز وجل إلا وقد هم بخطيئة أو عملها إلا يحيى بن زكريا فإنه لم يهم ولم يفعل». [الثعلبي ص 436].

الفصل الرابع عشر

مريم ابنة عمران

وابنها المسيح عيسى عليه السلام

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 42]

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: 16، 17].

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: 12].

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: 50].

(1)

كـان مشـرق الـنـهـار في ذلك اليوم ينبئ بضحى يوم جميل، حين خرج عمران[1] ليقضي بعض شئون حياته كنجار يقوم على حرفته وعبادة ربه.

اصطحبت حِنَّة[2] جـاريـتـهـا، وغـادرتـا الدار في عين كـارم، تـنـعـمـان بمشرق الشمس، وتنظران في وجه النهار، صورة من صور قدرة الله وبديع صنعه، فبينما هما ماضيتان في الطريق، حانت من حنة التفاتة نحو الأشجار، فرأت عصفورًا يزق صغاره، والصغار فرحى بأمهم، سعداء بها، والعصفور أكثر ما يكون سعادة بفراخه، صورة أخرى من صور قدرة الرب ومشيئته. هذه الصور أعادت إلى ذهن حنة أملها في الولد الذي عاشت طويلاً تحلم أن يرزقها الله به، ليسعد بما تفيض به عليه من أمومة وحنان، وليجد من أبيه عمران رعايته وحبه.

كانت حنة وزوجها عمران قد طال بهما الحنين إلى الولد، يعيشان خريف حياتهما على الأمل الذي راودهما طويلاً!!

لم تتمالك حنة نفسها، وهي تهتف بربها.. تناديه:

- رباه.. أنرت الكون بقدرتك، وأيقظته بعد ليله، فهلا يا رب تنعم عليّ، فترزقني بولد يملأ عليّ حياتي بعد طول انتظار؟ رباه.. جلت قدرتك، وعظمت مشيئتك. أنت أعلم بحالي، فأعد إليّ الأمل بعد أن طال السراب.

فما انتهت حنة من دعائها، حتى أحست بفيض من الأمل يتسرب إلى قلبها، يشرح صدرها، يسعدها.

---

(1) هو عمران بن ماثان، وقيل: ابن هاشم بن مأمون بن ميشيا، ينتهي نسبه إلى رجعام بن سليمان بن داود عليهما السلام، يعرف عند أهل الكتاب باسم يواقيم. [تاريخ الطبرى ج 2 ص 352].

(2) هي حنة بنت فاقود، ينتهي نسبها إلى سليمان عليه السلام، كانت من العابدات الصالحات.

ما هي إلا أيام.. حتى أحست حنة بأن الله قد سمع نداءها، وهيأ لها السبيل، وأنها حامل.

ترى؟ هل استعادت حنة صورة ذلك الطائر الذي رأته يزق صغاره ذات يوم، يوم نادت ربها، فاستجاب لها؟!

ومن أجل ذلك، واعترافًا بفضل الله عليها، نادت حنة ربها:

ـ ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: 35].

ما هي إلا بضعة شهور، حتى وضعت حنة حملها.. لم يكن ولدًا، كانت أنثى، فغلبت دهشتها على فرحتها، فنادت ربها، وكلها ثقة فيه:

ـ ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: 36].

ترى؟ هل يتقبل الله مريم ابنة عمران فداءً لنذر أمها التي عاهدت الله عليه، أن تكون خادمة في هيكل الرب؟

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: 37].

(2)

سعدت حنة بابنتها مريم سعادة ملأت عليها حياتها هي وزوجها عمران، لكن الموت أعجل بعمران، ولم تكن مريم قد جاوزت الثالثة من عمرها، فكانت مريم في حاجة إلى من يرعاها ويتعهدها لتكون واحدة من خدمة هيكل الرب في أورشليم، أليست أمها هي التي نذرتها لهذه المهمة؟!

هكذا قدر على مريم أن تكون يتيمة، وهي لا تزال صغيرة، لكنها لا تملك إلا أن تخضع لمشيئة الله، راضية بقضائه.

في موكب أشبه بموكب عرس، أخذت حنة ابنتها مريم ذات السنوات الثلاثة، يحف بها بعض أطفال في مثل سنها، ينشدن أعذب الأناشيد، ويترنمن بمزامير

داود، يُعلنَّ عن فرحتهن، فما كدن يصلن إلى هيكل الرب، حتى دفعت حنة ابنتها مريم إلى رجال الهيكل، وقالت لهم:

ـ هذه ابنة صاحبكم يواقيم.. نذرتها لخدمة هيكل الرب، فاختاروا منكم من يكفلها ويتعهدها بالرعاية، فقد كان أبوها صالحًا.

تمنى كل واحد من رجال الهيكل أن يأخذ مريم في كفالته، واختلفوا، حتى كادوا يتخاصمون، فقد كانت مريم بإشراقة وجهها فألاً حسنًا لهم.. وكفاها فخرًا أنها ابنة رجل عالم بالتوراة.

كان زكريا زوج أخت حنة حاضرًا، وكان على غير ولد، طال به الحنين إلى ولد يملأ عليه حياته وحياة زوجه أليصابات، لذلك تمنى أن يكون كافلاً لمريم.

اقترع الرجال فيما بينهم، من تكون مريم في كفالته؟ كتبوا أسماءهم على أقلامهم، وألقوها في ماء نهر الشريعة المقدس، فمن طاف قلمه في اتجاه عكس التيار، كانت مريم في كفالته، فبينما الرجال يتابعون أقلامهم، رأوا قلمًا واحدًا هو الذي طاف عكس التيار، كان قلم زكريا.

وسعد زكريا، فقد أصبحت مريم في كفالته هو وامرأته أليصابات خالة مريم.

تعهدت أليصابات برعاية مريم، لعدة سنوات، حتى إذا أصبحت تعي ما يدور حولها من شئون الحياة والدين ـ وكانت أمها قد توفيت ـ أخذها زكريا إلى هيكل الرب، وأقام لها مكانًا.. تهدأ فيه، تصلي لربها، وتدعوه.

كثيرًا ما كان زكريا يدخل على مريم وهي في محرابها، فيجد عندها رزقًا وفيرًا.. أصنافًا شتى من الفاكهة، فيسألها:

ـ ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾ [آل عمران: 37].

فتجيبه مريم:

ـ ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37].

في هذا المكان الروحاني، وهذا الجو الملائكي، نمت وعاشت مريم، تطالع مظاهر قدرة الله وعظمته، وتستمع إلى نصائح رجال الدين ومواعظهم ومناقشتهم، يزداد وجهها إشراقًا وبهاء، ويشع نورًا.

(3)

حتى إذا بلغت مريم مبلغ النساء في قومها، كان من حقها أن تختار زوجًا لها، يشاركها حياتها، ينسجان معًا برد سعادتهما.

اتفق كهنة الدين في الهيكل على أن يجتمع من الشباب والرجال من يجدون في أنفسهم الكفاءة للزواج من مريم سليلة الطهارة والإيمان، ودخل الكهنة الهيكل يصلون لربهم، ويدعونه أن يوفق مريم في اختيار شريك حياتها الذي يكون لها نعم الأخ والزوج والصاحب، وألهم الله زكريا أن يمسك كل واحد من المتقدمين بعصاه، وأعلمهم أن حمامة بيضاء ستطير بجناحيها فوقهم، وستحط الحمامة على عصا من يختاره الله زوجًا لمريم!!

وبينما تعلقت أنظار الحاضرين على الحمامة وهي تطير فوقهم.. تمنى كل واحد منهم أن تحط الحمامة على عصاه.

وحطت الحمامةِ على إحدى العصي.. ترى من يكون هذا الذي اختاره الله زوجًا لمريم؟!

كان الشيخ يوسف النجار[1].

ودهش الناس من اختيار الله لهذا الشيخ!! أتراه يستطيع أن يسعد مريم دون غيره من هؤلاء الشباب؟! سؤال تردد في ذهن الحاضرين، ولكن الجميع لا يملكون إلا أن يخضعوا لمشيئة الرب، داعين للخطيبين مريم ويوسف بالسعادة.

أصبح يوسف خطيبًا لمريم حتى يحول الحول، فيتزوجان.. هكذا كانت مراسيم الزواج عند اليهود.

ولأن يوسف ليس من أرض الخليل، ولكنه كان يعيش في الناصرة[2].. إحدى مدن أرض الجليل، لذلك اصطحب يوسف مريم، واتجها إلى الناصرة، يعيشان كخطيبين.

(1) يوسف النجار: وفق ما جاء في نسب المسيح في إنجيل متى، هو يوسف بن يعقوب ابن متَّان بن أليعازر، ينتهي نسبه إلى رحبعام بن سليمان بن داود عليهما السلام. [إنجيل متى الإصحاح الأول فقرات 1 ـ 17].

(2) الناصرة: إحدى مدن الجليل، كانت تشتهر بالتجارة، تبعد عن القدس حوالي 100كم، فيها قضى المسيح معظم حياته، ولذلك كان يعرف بالناصري. [الأطلس العربي ص33، وموسوعة المنجد ص 529].

لاشك أن مريم تركت فراغًا كبيرًا في هيكل الرب، وعزَّ فراقها على خالتها أليصابات وزوجها زكريا، لكنها شريعة الحياة في هذه الدنيا.. سنتها التي سار عليها الآباء والأجداد، ومن بعدهم سيسير عليها الأبناء والأحفاد.

* * *

استقرت مريم وخطيبها يوسف في الناصرة.. يقوم يوسف على حرفة النجارة كنجار في حانوت اتخذه على ناصية أحد الشوارع في الناصرة، وتقوم مريم على رعاية شئونه.

حتى كان ذات يوم..

خرجت مريم لتملأ وعاء الماء من إحدى الآبار في ناحية من خارج مدينة الناصرة.. كانت تصحبها بعض أترابها، ولأمر ما شاءه الله، ابتعد عنها أترابها، سبقنها، وبقيت هي وحيدة، يسري الفراغ حولها، فبينما هي كذلك، إذ رأت أمامها فتى جميل الوجه، مشرق المحيا.. تحيط به هالة من النور تضيء حوله، فغلبها الخوف على الدهشة، وسمعته يقول:

ـ ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 42].

أحسَّت مريم بالخوف والفزع، وأصابها ما يصيب أي فتاة طاهرة، وحاولت أن تبتعد عن الفتى.. لكنه ازداد منها اقترابًا، فما تملك إلا أن تلوذ بربها.. تناديه:

ـ ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: 8].

لكن الابتسامة كبرت على وجه الفتى، وهو يقول لها:

ـ ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: 19].

دار في ذهن مريم كثير من الخواطر، كيف يكون لها غلام، وهي ما تزال عذراء لم يمسسها بشر؟! وماذا يكون أمرها مع خطيبها يوسف؟ لا شك أنه سيتهمها بالسوء، ويسرحها، فقالت تخاطب الفتى وقد غلبها الحياء على الدهشة، لعله ينصرف عنها:

ـ ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: 20].

لكن ابتسامة الفتى كبرت على وجهه، لعل مريم تطمئن إليه، وسمعته يناديها:

ـ ﴿كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: 21].

ـ .... ؟

ـ ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: 21].

واقترب الفتى من مريم، ونفخ في جيب درعها، وأنبأها أن خالتها أليصابات[1] حامل في شهرها السادس، ثم ابتعد عنها.

عادت مريم بوعاء الماء إلى دارها، تفكر في أمرها، فما مضى غير قليل، حتى أحست بعلامات الحمل.

(4)

كانت مريم تعلم أن خالتها أليصابات زوج زكريا عاقر. طال بها الحنين إلى الولد.. لكن ملاك الرب قد أنبأها أنها حامل في شهرها السادس، ترى هل كان ما قاله الفتى حقيقة، أم مجرد خيال؟!

اتخذت مريم طريقها من الناصرة إلى أرض الخليل، وذهبت إلى دار خالتها أليصابات، فما كادتا تلتقيان، حتى أحست أليصابات بأن جنينها قد ارتكض في بطنها.. ترى ما أمر مريم، وماذا حدث لها؟!

في جلسة جمعت أليصابات ومريم باحت كل منهما بما في نفسها، وأخبرت مريم خالتها بما كان بينها وبين ملاك الرب ومخاوفها من يوسف خطيبها، لكن أليصابات بكلماتها العذبة، أعادت إلى مريم هدوء نفسها وطمأنتها.

وعادت مريم من عين كارم مرة أخرى إلى الناصرة.

أحس يوسف بما طرأ على مريم من تغيير.. مخاوفها التي بدت في عينيها، وانصرافها إلى تفكيرها وقلقها.. مظاهر حملها على جسمها، فأصابته الدهشة

(1) تعرض إنجيل لوقا لما حدث لمريم، فقد جاء فيه:

(في الشهر السادس من حمل أليصابات زوج زكريا أرسل جبريل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة، إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف واسم العذراء مريم، فدخل إليها الملاك، وقال سلام لك أيتها المنعم ، الرب معك مباركة أنت في النساء. فلما رأته اضطربت من كلامه، وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية، فقال لها الملاك: لا تخافي يا مريم، لأنك وجدت نعمة من الله، وها أنت ستحبلين وتلدين ابنًا اسمه يسوع، هكذا يكون عظيمًا، ويعطيه الإله كرسي داود، فقالت مريم للملاك: كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلًا. قال الملاك: الروح القدس تحل عليك، وهذه أليصابات نسيبتك هي أيضًا حبلى بابن في شيخوختها، وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقرًا، لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله. فقالت مريم: هو ذا أنا أمة الرب، ليكن له كقولك، فمضى من عندها الملاك).

[إنجيل لوقا الإصحاح الأول فقرات 26 ـ 38]

والشكوك، ماذا حدث لمريم؟ سؤال كان يتردد في ذهنه، وهو يتابعها بنظرات لا تخلو من شرود!!

في جلسة بين مريم وخطيبها يوسف، صارحته بأمرها مع ملاك الرب، لكن يوسف أحس بغصة في رجولته.. ماذا يقول الناس؟ وكيف يستطيع أن يواجه القوم بما قالته، ليبرئ ساحتها من الفضيحة والعار؟ إنه واثق من براءة مريم وطهارتها، ولكنه رجل له مكانته وشرفه بين قومه.. هكذا كان يعيش يوسف في قلق عواطفه.

هدأ يوسف في فراشه ذات ليلة، فبينما هو بين النوم واليقظة، سمع من يهتف به:

ـ (يا يوسف بن داود.. لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك، لأن الذي حبل به فيها هو من الروح القدس، وستلد ابنًا وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم). [إنجيل متى الإصحاح الأول فقرات 18 ـ 23].

أحس يوسف بالراحة تسري في نفسه، فعاهد مريم أن يقف بجانبها، يمسح عنها مخاوفها وأحزانها، ويدفع عنها كل أذى سينالها من قومها أو غيرهم، فقد تأكد من براءة مريم وطهارتها وفضل الله عليها.

وعادت الأيام تمضي بمريم ويوسف على خير ما أراده الله، والجنين يكبر في أحشاء مريم، في انتظار يوم يخرج إلى الوجود.

(5)

في قافلة من إحدى قوافل التجارة، انضمت مريم ويوسف في طريقهما مثل كثير من الناس إلى أرض الخليل.

لقد صدر أمر الإمبراطور أوغسطس[1] إمبراطور روما بعمل إحصاء لكل الذين يسكنون في إمبراطوريته، ولأن فلسطين كانت تابعة له في ذلك الوقت، كان على كل من فيها أن يسجلوا أسماءهم في سجلات أعدت لذلك.

---

(1) في تلك الفترة، صدر أمر الإمبراطور أوغسطس قيصر روما بأن يكتتب كل المسكونة، فصعد يوسف مع امرأته من الجليل من الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود، وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد مولودها ابنها البكر. [إنجيل لوقا الإصحاح الثاني فقرات 1 ـ 7].

ولأن مريم ويوسف كانا من سلالة داود، فقد كان عليهما أن يسجلا اسميهما في أرض الخليل.

كان الحمل قد أثقل مريم، زادته مشقة الطريق وهنًا لها، ومع ذلك كان على يوسف ومريم أن يمضيا في الطريق.

كان النهار قد أوشك على الرحيل، حين بلغا أطراف بيت لحم(١)، فحطا رحالهما، وذهب يوسف ينشد مأوى لهما، لكن الحمل ثقل على مريم، وأحست أنها على موعد مع خروج جنينها إلى الوجود، فذهب يوسف يبحث عن قابلة تساعدها في أمرها.

هدأت مريم بجوار جذع نخلة، تناشد ربها، وتصلي له، ليكون معها وهي في وحدتها، فتذكرت مريم ما قد ينالها من أذى قومها حين تعود إليهم ومعها دليل جريمتها (كما سيتصورون)، فنادت ربها:

ـ ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾ [مريم: 23].

لك الله يا مريم.. لقد غاب يوسف، وكتب عليك أن تقاسي الوحدة والفراغ حولك، وأنت في أمس الحاجة إلى من يقف بجانبك يشد من أزرك، يشجعك على الصبر.

وزادت طلقات المخاض على مريم، فما تملك إلا أن تحتضن جذع النخلة، وهي تنادى ربها أن يخفف عنها.

لحظات، وانفصل عن مريم جنينها، فأضاء نوره كل المكان حولها، ولدهشتها رأت جذع النخلة قد اخضر، وكساه الجريد، وتدلت ثماره.. نخلة باسقة(2) وسمعت من يناديها:

ـ ﴿أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: 24 ـ 26].

وقامت مريم، فغسلت ابنها وقمطته، وأضجعته في مذود بقر، كان الرعاة في تلك الليلة قد هجروا مذاودهم لأمر شاءه الله.

---

(١) بيت لحم: إحدى مدن الخليل في فلسطين.

(٢) معجزة النخلة التي اخضرت وأثمرت في غير موعدها، وكذلك السَّرِيُّ الذي أجراه الله تحت مريم، لتغتسل به وتغسل وليدها، لم يرد ذكرهما في الأناجيل كلها. [المؤلف]

وعاد يوسف ومعه القابلة، سالومة[1].. لكنهما وجدا أن مريم قد وضعت جنينها.

منذ ذلك اليوم، نذرت سالومة نفسها أن تكون بجوار مريم، تخدمها، وترعى شئونها، فقد أحست فيها وفي وليدها نورًا يشع في نفسها، وأدركت أن الرب قد أجرى معجزة له على مريم، لتكون عظة لقومها.

فلما كان المساء.. سمع يوسف ومريم وسالومة أغنيات تتردد في السماء، وترنيمات روحانية تنشد:

ـ المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة.

كلمات عذبة صافية، استراح لها السامعون، وكانت بركة وفضلاً على مريم التي اصطفاها الله بنعمته وفضله على غيرها من نساء العالمين.

(6)

مضى يوسف يتوكأ على عصاه، تصحبه مريم وهي تحمل وليدها، متجهيْن إلي ديار قومهما.. أفكار كثيرة تعبث بذهن يوسف، ومخاوف عظيمة تدور في عقل مريم.. نظرات من مرت عليهم أشبه بسيوف مشرعة نحوهما.

لك الله يا مريم.. لقد عرفت اليتم طفلة وصبية، وعشت الوحدة والخوف، والأخطار تحيط بك، ووضعت ابنك، وحيدة إلا من فضل الله عليك، فهل يكفيك الله شر مقالة قومك، ويدفع عنك اتهامهم لك؟!

وجاء إلى مريم صوت ملائكي يفيض عذوبة صافية يناديها:

ـ ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: 26]

هكذا ألهمها الله الطريق إلى مواجهة قوم فسدت عقولهم، وضلوا عن سواء السبيل.

---

(1) كان لسالومة دور كبير في حياة المسيح، فقد صاحبته وأمه إلى قوم مريم، وحضرت حديثه في المهد، وصاحبته مع مريم ويوسف في رحلتهم إلى مصر، وحتى بعد عودتهم منها، واستمرت بها الحياة حتى حضرت نهاية حياة المسيح بعد أن رفعه الله إليه. [راجع إنجيل لوقا الإصحاح 15 فقرة 40 ـ 41].

ما كادت مريم تصل إلى قومها.. تحمل وليدها عيسى.. حتى علت الدهشة وجوه قومها ونظرات الاتهام، وهي تحمل دليل جريمتها، أغواها ويوسف الشيطان، فخانا العهد الذي تعاهدا عليه، وفق شريعة موسى.

لم يتمالك القوم ألسنتهم، وهم يصرخون[1] في مريم:

ـ ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم: 27].

ـ ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ[2] مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ [مريم: 28].

ويهتف آخرون ساخطين عليها:

ـ ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: 28].

لم تتكلم مريم، فقد أمرها الله أن تصمت، كل ما فعلته أن أشارت إلى ابنها، كأنها تقول لهم: اسألوه.

ويهتف القوم.. كيف لمريم أن تتهمهم بالبلاهة، فقالوا لها في تهكم:

ـ ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: 29].

وكبرت الدهشة على القوم، وصمتت ألسنتهم، وصوت رقيق عذب ينبعث من مهد الوليد، يقول:

ـ ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: 30 ـ 31].

انقطع صراخ القوم، واختفت من على ألسنتهم كلمات الاتهام، وراحوا يتدبرون ما قاله الوليد عيسى.

حتى إذا انتهت أيام الصيام عن الكلام التي نذرتها مريم، جلس الجميع ينظرون إلى حديثها عن ملاك الرب، وما حدث بينهم وبين عيسى.

هنالك انبرى أحد مشايخ القوم، وكان على علم بشئون الدين، وقال:

(1) لم تتعرض الأناجيل لموقف قوم مريم ويوسف منهما، واتهامهم لهما بالسوء والخطيئة، ومعجزة عيسى الذي تكلم وهو في مهده، ناطقا ببراءة أمه مريم، وأنه سيكون نبيًّا إلى قومه، يعظهم، ويطهرهم من خطاياهم، ويهديهم إلى الطريق السليم الذي ابتعدوا عنه. [المؤلف]

(2) ليس هارون هذا هو أخا موسى الرسول، كما يعتقد البعض، فالزمنان بينهما متباعدان، لكن هارون هذا كان رجلاً صالحًا من قوم مريم.

ـ (ها قد تحققت نبوءة النبي أشعياء[1] [ها إن العذراء تحبل وتلد ابنًا]).

[إنجيل متى الإصحاح الأول فقرة 24]

وهكذا اقتنع الجميع ببراءة يوسف وطهارة مريم.

(7)

أشرق صباح أحد الأيام على بيت لحم وما حولها، فإذا رجال هيرودس حاكم المنطقة يجوبون الشوارع، يهاجمون الدور الآمنة، ينتزعون الصغار من أحضان أمهاتهم، وكأنما أصاب الصمم آذانهم عن سماع عويل النساء، وصرخات الآباء، ولهفة الجميع على أبنائهم، حتى غدت شوارع بيت لحم وما حولها بركة آسنة من دماء الأطفال الأبرياء، الذين تناثرت رءوسهم وأجسادهم في الشوارع، يدوسها بنعالهم القاسية رجال هيرودس الذين غلبت عليهم شقوتهم.

كان رجال من المجوس[2] من أرض فارس قد رأوا نجمًا أخبرتهم كتبهم ـ كما جاء في نبوءات النبى دانيال[3] ـ أن هذا النجم يظهر عند ميلاد نبي في بني إسرائيل، ليعيد الشعب إلى الهداية.

تابع الرجال المجوس النجم، وساروا معه من الشرق إلى الغرب، حتى وصلوا بيت لحم، والتقوا بهيرودس، وأخبروه خبرهم، وأن الطفل الذي ولد في بيت لحم سيكون سببًا في هلاكه، وتعاهدوا مع هيرودس أن يدلوه على مكانه، التقى

(1) أشعياء: هو أشعياء بن آموص ويقال: ابن أمضيا (تاريخ الطبري ج 1 ص 305)، كان أحد أنبياء بني إسرائيل، له سفر باسمه في العهد القديم يتكون من 66 إصحاحًا.

(2) (ولما ولد يسوع في بيت لحم في أيام هيرودس الملك إذا مجوس من الشرق جاءوا إلى أورشليم، يسألون أين هذا المولود، فلما سمع هيرودس ذلك اضطرب وجمع أهل أورشليم ورؤساء الكهنة وسألهم: أين مولد المسيح، فقالوا له: في بيت لحم اليهودية.. حينئذ دعا هيرودس المجوس، وتحقق من زمان النجم، ثم أرسلهم إلى بيت لحم، وذهبوا إليه، وقدموا له الهدايا وانصرفوا) إنجيل متى الإصحاح الثاني فقرات 1 ـ 13.

(3) النبي دانيال: أحد أنبياء بني إسرائيل، كانت له نبوءات عن خراب أورشليم، ومولد النبي عيسى الذي سيخلص الشعب من خطاياه.. ألقاه الملك نبوخذ نصر أمام أسدين جائعين، ولكنهما لم يصيباه بأذى، يقال: إن العرب المسلمين وجدوا جثته في تستر (بفارس) فدفنوه، له سفر باسمه من أسفار العهد القديم يتكون من 12 إصحاحًا.

المجوس بالطفل عيسى وأمه مريم، وقدموا له الهدايا، ولكنهم هربوا عائدين إلى ديارهم، مما دفع هيردوس إلى قتل كل أطفال بيت لحم وما حولها!!

لك الله يا مريم.. لقد قاسيت الخوف والوحدة والمشقة من أجل ولدك عيسى، فهل يقدر الله له أن تنتهي به الحياة على يد رجال هيرودس مثل غيره من الأطفال؟!

وشارك يوسف مريم مخاوفها وأحزانها وآمالها في نجاة طفلها.

هدأ يوسف ذات ليلة في فراشه، فبينما هو يفكر في مريم وابنها، وقد طاف به طائف الخوف عليهما.. غفت عيناه لحظة لا علم له بمداها، فسمع هاتفًا يناديه:

- (يا يوسف.. قم وخذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر، وكن هناك حتى أقول لك، لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه) [إنجيل متى الإصحاح الثاني فقرة 13]

إنه نفس صوت الهاتف الذي أمره ذات يوم أن يمسك مريم ولا يسرحها.. ترى ماذا يفعل يوسف؟!

(8)

جنح الليل بظلامه، وأرخى أستاره الحالكة على بيت لحم وما حولها، بينما تهيأت قافلة مريم ويوسف للرحيل من فلسطين، كانت مريم تحتضن ابنها، وهي فوق حمار، يمسك بزمامه يوسف.. تتبعهم سالومة التي أبت إلا أن تصحبهم في غربتهم، لقد كانت سالومة مثالاً للمرأة المخلصة الطيبة التي هداها الله إلى الحقيقة يوم التقت بمريم.

سكت القرآن الكريم، وكذلك الأناجيل عن الأحداث التي وقعت لمريم وابنها عيسى في مصر، وليس لدينا إلا بعض المعلومات التي رواها الرواة من المسلمين أو المسيحيين، وما يؤكد بعض هذه الروايات آثار تدل على مرور العائلة على عدة قرى ومدن مصرية.

* * *

خرجت العائلة: مريم وابنها عيسى، ويوسف، تصحبهم سالومة، ورغم الحصار الشديد الذي فرضه رجال هيرودس على أبواب مدينة بيت لحم، فقد استطاعت سالومة بطريقة ما أن تحجب مريم وابنها عيسى عن أعين الرجال، وادعت لهم أنهم أسرة مسافرة إلى حبرون..

بينما كانت مريم تحتضن عيسى في خوف مما قد يناله، إن اكتشف أمرها، فما تملك إلا أن تدعو ربها أن يصرف عنها السوء.

من حبرون.. اتجهت العائلة إلى غزة، يواصلون الليل بالنهار، لا يهدءون إلا قليلاً، خوفًا من أن يلحق بهم رجال هيرودس، حتى وصلوا إلى غزة.

شاءت الأقدار أن يتعرض أفراد الأسرة وهم في طريقهم لهزة عنيفة من الخوف، فقد كان يتبعهم لصان، لاحظا أن في أيدي سالومة لفافة كبيرة، فظنوها ثروة، فتابعا الأسرة، وأحست مريم بنظرات الرجلين الثاقبة، حتى خيل إليها أنهما من رجال هيرودس، فما تملك إلا أن تلصق ابنها إلى صدرها.

حانت التفاتة من أحد الرجلين إلى الطفل، فاقترب منه، وكشف عن وجهه، فأحس الرجل بنور يملأ صدره، فعاهد نفسه ألا يسيء إلى العائلة، واتفق مع صاحبه أن يقوما على حراستهم وهم في طريقهم.. فما كاد يسفر صباح ذلك اليوم، حتى وصلوا إلى غزة.

من غزة.. اتجهت العائلة إلى الفرما[1]، تلك المدينة التي تقع شرق مصر، حيث هدءوا فيها، ليستريحوا، فعادت إلى أذهانهم صورة هاجر المصرية التي وهبها الملك لسارة زوج إبراهيم، فتزوجها عليه السلام، وأنجبت له ابنه إسماعيل.

من الفرما وصلوا إلى مدينة تل بسطة[2] حيث جلسوا تحت شجرة وارفة الظلال.

في تل بسطة، بقيت الأسرة، فقد استضافها قلوم عمدة القرية، وأسبغ على العائلة فضله وكرمه.

ومما يروى أن مريم في أحد الأيام خرجت بصحبة ابنها عيسى لتتعرف على بعض معالم المدينة، فوجدت معبدًا ازدحم الناس فيه.. فيه يقومون على عبادة

---

(1) الفرما: مدينة قديمة تقع شرق مصر، وكانت تعرف باسم باليوزم.

(2) تل بسطة أو بوسطة: نسبة إلى الإلهة باستت (القطة السوداء) التي كان يعبدها أهل هذه المنطقة، تقع قرب الزقازيق، في هذه المدينة القديمة، كانت تقع دار عمدتها قلوم، أقيمت على أنقاضها كنيسة لا تزال باقية حتى الآن.

الآلهة باستت (القطة السوداء)، فما كادت مريم وابنها عيسى يدخلان المعبد، حتى تساقطت تماثيل الإلهة[1] باستت، وتهاوت عن قواعدها، وتناثرت أشلاؤها في بحر من النبيذ المسفوح!!

خشيت مريم على ابنها من والي مصر الروماني بعد أن عرف ما حدث للآلهة باستت، ومن أجل ذلك غادرت الأسرة تل بسطة.

أماكن كثيرة مرت بها العائلة في مصر: المحمة[2]، بلبيس[3] بالإضافة إلى عدة قرى ومدن في الدلتا، كما اتجهوا إلى وادي النطرون.

* * *

بينما كانت الأسرة تعيش في مصر في أمان.. علموا أن هيرودس بعث بعض رجاله للبحث عنهم.

لك الله يا مريم.. أكُتِب عليك الخوف حتى في أرض غريبة؟ ألم يكف هيرودس ما فعله حتى اضطرهم إلى الهرب؟!

في مركب شراعي.. مضى بالعائلة يطوي صفحة ماء النيل العظيم، مارًا بعدة مدن: منف (ممفيس)، بني سويف، مغاغة، حتى وصلوا إلى سمالوط.

في سمالوط، نزل أفراد العائلة: يوسف ومريم وابنها وسالومة، يستريحون قليلاً من مشاق السفر في ظل جبل يعرف باسم جبل الطير[4] فبينما هم كذلك.. انهارت كتلة ضخمة من الجبل، وزحفت نحوهم، حتى كادت تسقط عليهم!! فارتاعت مريم على ابنها، أبعد كل هذه الأحداث التي شاء الله فيها السلامة لابنها عيسى.. تضع هذه الكتلة من الجبل نهاية حياته؟

لحظات من القلق عاشتها مريم تذرف دموعها، تصارع المخاوف، وهي ترى كتلة الجبل تزحف نحوهم، فلا يستطيعون أن يوقفوا زحفها، ولا يملكون إلا أن يستسلموا للواقع رغم مرارته!!

---

(1) لعل هذا كان تأكيدًا لما جاء في سفر أشعياء النبي أحد أسفار العهد القديم، والذي يقول فيه (فترتجف أوثان مصر) [الإصحاح 19 فقرة 2].

(2) المحمة: مكان قرب القاهرة حاليًا، يعرف باسم مسطرد.

(3) بلبيس: هي الآن أحد مراكز محافظة الشرقية، مر عليها القائد عمرو بن العاص، حين جاء لفتح مصر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب.

(4) عرف هذا الجبل بعد ذلك باسم جبل الكف إحياء لذكرى هذه الحادثة.

لأمر شاءه الله، مد الطفل عيسى كف يده، وصد به الكتلة الضخمة من الصخر.. منعها من أن تسقط عليهم، بقيت في مكانها.. كأنها أمسكت عن الحركة، وانسحب أفراد الأسرة بعيدًا.. سعداء بفضل الله عليهم، وببركة الطفل عيسى الذي باركه الله أينما كان.

وعاد أفراد الأسرة إلى المركب، ليمضي بهم على صفحة مياه النيل العظيم، حتى وصلوا إلى القوصية، ومنها اتجهوا غربًا، ليستقروا عند جبل قسقام، حيث أنبع الله لهم بئرًا، يعيشون بجوارها في أمان، بعيدًا عن أيدى الرجال الذين بعثهم هيرودس.

* * *

هدأ يوسف ذات ليلة، وقد وفدت إلى ذهنه تلك الأحداث التي عاشها، وقبل أن يأخذه النعاس، سمع هاتفًا يناديه:

- (يا يوسف.. قم وخذ الصبي وأمه واذهب بهما إلى أرض إسرائيل، لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي).

إنه نفس الصوت الذي هتف به قبل أن يأتي إلى مصر، فيا لسعادة مريم بعودتها إلى ديارها وأهلها في حبرون.

لم يمض غير قليل، حتى استعد أفراد الأسرة للرحيل.. ارتادوا النيل كما جاءوا، حتى وصلوا إلى أون[1]، ومنها اتخذوا طريقهم إلى فلسطين، حيث اتجهوا إلى الناصرة مدينة يوسف.

(9)

في الناصرة.. عاد يوسف إلى حانوته، يقوم بعمله كنجار، يعاونه الصبي عيسى، ليعود إلى أمه مريم في نهاية النهار، وقد هيأت لهما الاستقرار والسعادة.

(1) أون: تعرف الآن باسم عين شمس بالقرب من القاهرة.

ليس لدينا أحداث ذكرها القرآن الكريم منذ عودة العائلة، حتى بعثه الله رسولاً إلى قومه.

لكن أحد الأناجيل، وهو إنجيل لوقا[1] تحدث عن حادثة وقعت لهم، حين كان عمر عيسى اثني عشر عامًا.

كان ذلك في عيد الفصح[2]، اصطحب يوسف مريم وابنها عيسى إلى أورشليم، لعل سالومة شاركتهم هذه الزيارة، وشاركوا القوم احتفالاتهم بهذا العيد، حتى إذا انتهت أيام الاحتفال.. عادوا إلى الناصرة.

في الطريق.. تفقدت مريم ابنها، فلم تجده، ترى ماذا حدث له؟ هل تأخر عنهم؟ أم سبقهم؟ راحوا يبحثون عنه دون أن يعثروا عليه، فعادوا إلى أورشليم، ودخلوا الهيكل، فإذا عيسى ذو الاثني عشر عامًا يجادل العلماء ويسألهم، ويجيب على أسئلتهم بفهم ووعي. ويحاجهم في الناموس، ويقنعهم برأيه، مما يدل على أنه أوتي فيضًا من العلم أكبر من عمره.

عاد يوسف ومريم وعيسى إلى الناصرة، يحمدون الله على ما سمعوه وما رأوه.

(10)

ثمانية عشر عامًا مضت على حادثة عيد الفصح التي أوردناها دون أن يحدث جديد، لعل يوسف النجار مات خلالها، ليس لدينا ما يؤكد أو ينفي هذا الأمر،

(1) (وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح، ولما كانت له اثنتا عشرة سنة، صعدوا إلى أورشليم، وعند رجوعهما بقي الصبي في أورشليم، ويوسف وأمه لا يعلمان، وكانا يطلبانه بين الأقرباء والمعارف، ولما لم يجداه رجعا إلى أورشليم، فوجداه في الهيكل جالسًا وسط المعلمين، يسمعهم ويسألهم وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته..) إنجيل لوقا الإصحاح الثاني فقرات 42 ـ 52.

(2) عيد الفصح: أحد أعياد اليهود، يقع في 15 نيسان (إبريل) يتفق يومه مع خروج بني إسرائيل من مصر، ومن مراسم هذا العيد، التضحية بخروف يأكلونه في العشاء، ويمتنعون مدة سبعة أيام عن أكل الخمير. [المنجد ص 390]

بينما كان عيسى يكبر ويزداد معرفة بشئون الحياة، وتولي إدارة حانوت يوسف.. خلفه في حرفته كنجار.

حتى كان ذات يوم..

علم عيسى بأمر ذلك الفتى (يوحنا) بن زكريا، الذي خرج من عزلته في البادية، ووقف عند بيت عينا، يعمِّد الناس بماء النهر الشريف المقدس، ويدعوهم إلى التوبة، وقد ازدحم حوله كثير من الناس.

كواحد من سكان المنطقة.. ذهب عيسى، ليعمده يحيى، وكان لقاء حميمًا بين ابني الخالة، وكان حديث يحيى يؤكد أنه سيأتي من بعده من هو أفضل منه، وينقذ الشعب من خطاياه.

وحينما خرج عيسى من ماء النهر، بعد أن عمده يحيى (على معظم الآراء) حطت عليه حمامة بيضاء، وبعثه الله رسولاً إلى قومه.

مضى عيسى يجوب أنحاء فلسطين بين اليهودية والجليل، يدعو الناس إلى الحق، وينبئهم بأحداث مستقبلة، كانت قلوبهم قد قست، وانحرفوا عن الطريق المستقيم، وتعددت فرقهم بين الصدوقيين والفريسيين والكتبة والكهنة.

كان عيسى عليه السلام في جولاته ومواعظه يقوم بعدة معجزات منحها الله له، أبرأ الأكمه والأبرص، وأعاد إلى بعض العميان أبصارهم، وأحيا بعض من ماتوا بإذن الله ومشيئته، وكلها معجزات دفعت الكثير من الناس إلى أن يؤمنوا به رسولاً ونبيًا.

خلال جولات عيسى.. لقيته امرأة كان لها صفحة في حياته.. إنها مريم المجدلية[1].

(1) مريم المجدلية. نسبة إلى مدينة المجدل التي تقع قرب ساحل البحر المتوسط (بين غزة وأسدود) وتبعد عن القدس بحوالي 60 كم. [الأطلس العربي ص 33، والمنجد ص471].
وقد أوردت الأناجيل قصة هذه المرأة: إنجيل لوقا الإصحاح السابع فقرات 26 ـ 42، إنجيل مرقس الإصحاح 15 فقرات 40، 41..
وللأسف فإن بعض المسيحيين ادعوا كذبًا أن السيد المسيح قد تزوج من مريم المجدلية، وأنها سافرت إلى بلاد الغال (فرنسا حاليًا) ووضعت ابنتها هناك، وهذا محض افتراء وكذب عليها وعلى المسيح عليه السلام. [المؤلف]

كانت امرأة خاطئة.. زانية.. أحست بنور الإيمان يملأ صدرها، بعد ما ارتكبت من خطايا، فهجرت المعصية، وجاءت إلى عيسى، وأخبرته بأمرها، وأنها ترغب في التوبة، وكان الناس يعرفون حقيقتها، وأنها تستحق الرجم، لكن عيسى غفر لها خطيئتها، وعفا عنها لتوبتها توبة نصوحًا، وقال لمن عارضوه:

- من كان منكم بلا خطيئة فليلقها بحجر!!

ولأن الحاضرين كانوا يدركون عظم خطاياهم، فقد أمسكوا أيديهم، ووافقوا عيسى على قبول توبتها.

* * *

* رحم الله سالومة بقدر إيمانها، وحرصها على سلامة مريم وابنها، وما حققته من خدمات ومواقف عظيمة، وما تحملته من مشاق صحبتها لهم في مصر.

* ورحم الله مريم المجدلية بقدر توبتها عن الخطيئة، توبة صالحة، وغفر لها ما قدمت من خطيئة ندمت عليها.

* ورحم الله العذراء مريم أم المسيح عيسى عليه السلام بقدر ما تحملت من مشاق، ولاقت من مصاعب واتهامات في مواجهة قومها، ثم غربتها في مصر.

وقد كرم القرآن الكريم مريم في كثير من آياته، واصطفاها، وجعلها وابنها آية.

أما رسول الله محمد ﷺ، فقد أكد أنها إحدى سيدات نساء الجنة..

قال ﷺ: «**خير نساء العالمين مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد**». [رواه أنس بن مالك]

مراجع الكتاب

1 – القرآن الكريم

2 – الكتاب المقدس: العهد القديم (التوراة) العهد الحديث (الأناجيل)، دار الكتاب المقدس بالقاهرة.

3 – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث بالقاهرة.

4 – البداية والنهاية لابن كثير، دار الإيمان بالمنصورة.

5 – تاريخ الطبرى لابن جرير الطبري، المكتبة التوفيقية بالقاهرة.

6 – قصص الأنبياء لابن كثير، مكتبة الإيمان بالمنصورة.

7 – قصص القرآن (عرائس المجالس) للثعلبي، دار الفكر بدمشق.

8 – قصص القرآن لمحمد بيومي، مكتبة الإيمان بالمنصورة.

9 – قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار، دار ابن كثير ببيروت.

10 – أنبياء عاشوا في مصر لفتحي فوزي عبد المعطي، مركز الأهرام للترجمة والنشر.

11 – موسوعة تاريخ مصر للدكتور سليم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

12 – يوحنا المعمدان، ف. ب. ماير، ترجمة القس داود، مكتبة المحبة بالقاهرة.

13 – حياة المسيح لعباس محمود العقاد، دار الهلال بالقاهرة.

14 – إبراهيم أبو الأنبياء لعباس محمود العقاد، دار نهضة مصر بالقاهرة.

15 – أطلس تاريخ الأنبياء والرسل لسامي بن عبد الله المغلوث، دار العبيكان بالسعودية.

16 – رحلة العائلة المقدسة في مصر، منشورات وزارة السياحة المصرية، وزارة السياحة بالقاهرة.

17 – مجموعة من تفاسير القرآن الكريم للشعراوي، النسفي، الجلالين.

18 – موسوعة المنجد لويس معلوف، الطبعة الكاثوليكية ببيروت.

الفهرس

مقدمة 3

الفصل الأول

حواء زوج آدم عليه السلام 5

الفصل الثاني

امرأة نوح عليه السلام 19

الفصل الثالث

سارة: زوج إبراهيم وأم إسحق عليهما السلام 27

الفصل الرابع

هاجر المصرية: زوج إبراهيم وأم إسماعيل عليهما السلام 41

الفصل الخامس

امرأة لوط عليه السلام 57

الفصل السادس

زليخة: امرأة عزيز مصر وصاحباتها ويوسف عليه السلام 67

الفصل السابع

رحمة: زوج أيوب عليه السلام 81

الفصل الثامن

يوكابد أم موسى وهارون عليهما السلام 97

الفصل التاسع

مريم: أخت موسى وهارون عليهما السلام 113

الفصل العاشر
صافورة: زوج موسى عليه السلام 121
الفصل الحادي عشر
آسية امرأة فرعون وأمومتها لموسى عليه السلام 133
الفصل الثاني عشر
بلقيس ملكة سبأ وسليمان عليه السلام 141
الفصل الثالث عشر
أليصابات: زوج زكريا وأم يحيى عليهما السلام 153
الفصل الرابع عشر
مريم ابنة عمران وابنها المسيح عيسى عليه السلام 171
مراجع الكتاب 191

أحـــدث إصــــدارات

الأستاذ

فتحي فوزي عبد المعطي

- العذراء مريم وميلاد المسيح عيسى عليه السلام بين القرآن والإنجيل.
- قصص إسلامية نزلت في أصحابها آيات قرآنية.
- سيرة سيدات نساء الجنة.
- أمهات في حياة الرسول ﷺ.
- مواقف في حياة الرسول ﷺ نزلت فيها آيات قرآنية.
- سيرة حياة كُتَّابِ الرسول ﷺ.
- نساء في حياة الأنبياء.


نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

نساء في حياة الأنبياء

هذا الكتاب:

سياحة تاريخية ودينية، يجوب القارئ من خلالها مناطق عديدة من العالم، ويعيش أحداثًا كثيرة خلال عصور تاريخية طويلة، من عهد آدم عليه السلام، حتى قبيل مولد محمد صلى الله عليه وسلم.

إنه يتحدث عن أربع عشرة سيدة.. بعضهن كن زوجات أو أمهات أو أخوات لأنبياء، وأخريات كان لكل منهن دور في حياة نبي.

يعتمد الكتاب في معلوماته على ما جاء في القرآن الكريم من آيات بينات، وما أورده الكتاب المقدس بعهديه: القديم (التوراة) والحديث (الأناجيل) من معلومات.

يتعرض الكتاب لبعض القضايا الهامة مثل: أين قامت أول حياة بشرية على سطح الأرض؟ أين كانت الجنة التي سكنها آدم قبل أن يهبط إلى الأرض؟ وهل هي جنة الخلد أم جنة أخرى؟

إنها صفحات من صفحات التاريخ، بسطو... أمام القارئ بأسلوب أدبي، وحوارات شيقة... الجميع عظة وعبرة.







